كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾[1].

زحفت الجموع، وزحف معهم أمية، وخيم شبح الموت على كل شبرٍ يسير إليه.. إنه الآن يتوقع خروج رسول الله ﷺ أو بعض صحابته في أية لحظة، ومن أي مكان ليقتلوه.. إنه ليتساءل.. ترى:

أين محمد

أجل أين رسول الله ﷺ؟

لقد (خرج رسول الله ﷺ في أصحابه [حتى بلغ والياً يقال له: «ذفران» فخرج منه، حتى إذا كان ببعضه نزل] وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار النبي ﷺ الناس، وأخبرهم عن قريش)[2].

لكن كيف علم ﷺ بخروج قريش.. كيف عرف عددهم، ولماذا يستشير أصحابه مرة أخرى، وهم قد وافقوا على الخروج معه عندما كانوا في المدينة؟ لنبدأ بالأمر الأول.

كيف علم ﷺ بخروج قريش

يقول أحد الصحابة المشاركين بتلك الأحداث وهو أنس بن مالك: (إن رسول الله ﷺ ندب أصحابه، فانطلقوا إلى بدر، فإذا هم بروايا قريش فيها عبد أسود لبني الحجاج، فأخذه أصحاب رسول الله ﷺ فجعلوا يسألونه: أين أبو سفيان؟ فيقول: والله ما لي بشيء من أمره علم، ولكن هذه قريش قد جاءت فيهم: أبو جهل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف.

فإذا قال لهم ذلك ضربوه. فيقول: دعوني، دعوني أخبركم. فإذا تركوه قال: والله ما لي بأبي سفيان علم، ولكن هذه قريش قد أقبلت، فيهم أبو جهل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف قد أقبلوا. والنبي ﷺ يصلي -وهو يسمع ذلك- فلما انصرف[3]

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٧.

(٢) حديث حسن. دون ما بين المعقوفين. رواه ابن إسحاق وهو جزء من حديثه الطويل.

(٣) انصرف من صلاته: انتهى والانصراف يعني أيضاً: التسليم.

قال: «والذي نفسي بيده إنكم لتضربونه إذا صدقكم، وتدعونه إذا كذبكم، هذه قريش قد أقبلت لتمنع أبا سفيان»[1].

هكذا علم رسول الله ﷺ بمقدم قريش وطواغيتها.. كان الأمر خطيراً وعصيباً جداً، ولا بد لنبي الله ﷺ من أن يعيد حساباته من جديد.. لا بد من معرفة حجم الخطر القادم، وهل في الإمكان مواجهته؟ أم أن في مواجهته تهوراً، ولا بد من الانسحاب للحفاظ على صفوة الأمة ونواتها..؟ ما غاب ذلك عن رسول الله ﷺ ولم يغب. فقط وبحوار قصير بين رسول الله ﷺ وبين ذلك الغلام المشرك، ودون ضرب، أو تعنيف، أو إكراه.. دون سياط أو حبال.. انتهى كل شيء.

كيف عرف ﷺ عدد قريش

يتحدث عن ذلك بطل آخر من شباب الإسلام. علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث يقول: (كان النبي ﷺ يتخبر عن بدر، فلما بلغنا أن المشركين قد أقبلوا، سار الرسول ﷺ إلى بدر - وبدر بئر- فسبقنا المشركون إليها، فوجدنا فيها رجلين منهم، رجلاً من قريش، ومولى لعقبة بن أبي معيط.

فأما القرشي فانفلت، وأما مولى عقبة فأخذناه، فجعلنا نقول له: كم القوم؟ فيقول: هم -والله- كثير عددهم، شديد بأسهم. فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه، حتى انتهوا به إلى النبي ﷺ، فقال له: كم القوم؟ فقال: هم -والله- كثير عددهم، شديد بأسهم، فجهد النبي ﷺ أن يخبره كم هم، فأبى. ثم إن النبي ﷺ سأله كم ينحرون من الجزور؟[2] فقال: عشراً كل يوم.

فقال رسول الله ﷺ: القوم ألف، كل جزور لمائة)[3]. بفطنته وذكائه ﷺ توصل إلى عدد قريش، لكن كم كان:

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم وأبو داود واللفظ له صحيح أبي داود ٢٣٣٢.

(٢) الإبل.

(٣) سنده صحيح. رواه البيهقي ٣-٤٢ وأحمد ١-١١٦: إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن حارثة عن علي: إسرائيل ثقة وسماعه من شيخه (جده) قبل الاختلاط، وجده تابعي ثقة التقريب ٤٢٣ أما حارثة بن مضرب فتابعي كبير ثقة التقريب ١٤٩.

عدد الصحابة؟

إذا كانت قريش ألفاً، فإن ذلك الطفل الذي منعه الرسول ﷺ من الخروج لصغر سنه يحدثنا عن عدد المسلمين (البراء بن عازب) رضي الله عنه يقول: (استصغرت أنا وابن عمر يوم بدرٍ، وكنا -أصحاب محمدٍ- نتحدث أن عدة أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، كعدة أصحاب (طالوت) الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه النهر إلا مؤمن)[1] لقد كان امتحاناً صعباً لطالوت ومن معه أمام جيش الروم، وهاهو امتحان آخر لأصحاب رسول الله ﷺ.. إنهم ثلاثمائة وبضعة عشر فقط، وهؤلاء الثلاثمائة إذا نظرت إليهم باحثاً عن خيل يركبونها لم تجد سوى فرسين. يقول علي: (ما كان معنا إلا فرسان، فرس للزبير، وفرس للمقداد بن الأسود)[2].

ثلاثمائة ليس معهم إلا فَرَسَان، فماذا عن البقية..؟

إنك لو نظرت مرة أخرى إليهم، لنظرت إلى مشهدٍ خلاب، رغم الفقر والحفاء والعوز.. لن تجد أحداً يسير على قدميه كل الطريق، ولن تجد أحداً يركب كل الطريق.. كانت قافلةً من القلوب والمشاعر قادها ﷺ إلى بدر. عبد الله بن مسعود أحد تلك القلوب التي تخفق بالإيمان والإيثار والنظام يقول رضي الله عنه وعنهم: (كنا يوم بدرٍ كل ثلاثةٍ على بعير، كان أبو لبابة وعليّ زميلي رسول الله ﷺ، فكانت إذا حانت[3] عقبة رسول الله ﷺ يقولان له: نحن نمشي عنك.

فقال: ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما)[4].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ له ٣-٣٦.

(٢) سنده حسن رواه البيهقي ٣-٣٩: أخبرنا أبو عبد الله، أخبرنا عبد الله بن إسحاق البغوي، حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدثنا ابن وهب، وأخبرني أبو صخر عن أبي معاوية البجلي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أن علي: أبو معاوية صدوق من رجال مسلم واسمه: عمار بن معاوية الدهني، وأبو صخر: حميد بن زياد التهذيب ٣-٣٦ من رجال مسلم حسن الحديث، وتلميذه إمام معروف، والبغوي مسند بغداد التذكرة ٨٨٩.

(٣) إذا جاء دور الرسول ﷺ في المشي.

(٤) إسناده حسن رواه أحمد ١-٤١١ و٤١٨ و٤٢٢ من طريق حماد بن سلمة حدثنا عاصم بن بهدلة عن زر عن ابن مسعود. عاصم حسن الحديث وزر ثقة التقريب ٢٨٥٢١٥.

رسول الله ﷺ ونبيه وخير خلقه يقطع المسافات مشياً، رغم وجود من يبذل روحه فداءً لتلك الخطوات الشـريفة. لكنه كان يشـارك أصحابه.. يعلمهم.. يتماهى بهم.. يشفق عليهم، ويرأف بهم، ويحنو عليهم، ويطمع مثلهم بالأجر من عند الله.

لقد رق ﷺ لمنظرهم وهم يتعاقبون، ورق لحالهم وهم يتساقطون من التعب والجوع وطول السفر، فاتجه إلى أرحم الراحمين يستمطره رحمة لهؤلاء المساكين. ابتهل.. لهج بقلبه ولسانه وقال: (اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم)[1].

دعاء يفيض رحمةً وشفقة، وحالة أصحابٍ يرثى لها، وظرف صعب يفاجئ القافلة المؤمنة، وعدو كشـر عن أنيابه وسيوفه وحقده. ومع ذلك كله.. لم تخف القلة المؤمنة، ولـم ترتجف، لكن هناك من كره لقـاء قريش بهذا الاسـتعداد الضعيف، فما للقتال خرجوا، وما لهذه الجموع احتسـبوا. لقد خرجوا يريدون مالاً لهم في قافلة، فصاروا أمام جيش متأهب لأخذهم.

لقد كرهوا ذلك خوفاً على دولتهم الفتية.. على رسـولهم أن تناله أيدي المشركين ورماحهم. لقد وصف الله سـبحانه تلك المشـاعر فقال: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ ﴾[2].

يقـول كعب بن مالك رضي الله عنه: (تخلفت عن غزوة بدر، ولم يعاتب الله أحداً تخلـف عنها، إنما خرج رسـول الله ﷺ يريد عير قريش، حتـى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد)[3].

لقد رأى ﷺ في وجوه الصحابة العزم والشجاعة، ورأى في وجوه البعض الشجاعة والكراهية معاً، وذلك لعدم الاستعداد، وقلة العدد والعدة.

رأى خوفهم عليه وعلى دينهم ودولتهم فتوقف ﷺ لـ:

---

(١) سـنده حسـن. رواه البيهقي ٣-٣٨ وأبو داود ٢٧٤٧ من طريق ابن وهب حدثنا حيي عن أبي عبد الرحمن الحبلـي عـن عبد الله بن عمرو. ابن وهب ثقة مر معنا، وحيي حسـن الحديث، قـوي إذا روى عنه ثقة، والحبلي ثقة من رجال مسلم اسمه: عبد الله بن يزيد.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٥، ٦.

(٣) حديث صحيح طويل. رواه البخاري (٤٤١٨).

المشورة الثانية

(خرج رسول الله ﷺ في أصحابه [حتى بلغ وادياً يقال له «ذفران»، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل]، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار النبي ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر رضوان الله عليه فقال وأحسن. ثم قام عمر رضي الله عنه فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: يا رسول الله، امض إلى حيث أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، [فوالذي بعثك بالحق لئن سرت بنا إلى برك الغماد[1]، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه])[2] (لا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ولكن نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك، وخلفك. قال ابن مسعود: فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره)[3].

لقد تأثر ابن مسعود بما قاله المقداد، وتمنى في تلك اللحظات لو كان هو صاحب تلك الكلمات، ولم يستطع ابن مسعود أن يكتم ذلك في نفسه، لقد صرح به فيما بعد فقال: (شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً، لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عُدل به)[4] أما رسول الله ﷺ فبعد أن رأى تلك العواطف الجياشة تموج أمامه، وعن يمينه، وعن شماله، وتحميه من خلفه.. بعد أن رأى الفداء يظلله كالحب.. كالغمام. صاح مرة أخرى بالفئة المؤمنة؟ فتنبه أحد الأنصار لهذا النداء المتكرر، وفهم مراد رسول الله ﷺ. لقد تحدث أبو بكر وعمر وتحدث المقداد، ومع ذلك كله ينتظر رسول الله ﷺ رأياً آخر، له في نفسه وزن لا يقل عن تلك الآراء السابقة.

---

(١) قال الراوي: مدينة الحبشة.

(٢) حسن. رواه ابن إسحاق وقد مر معنا، حيث صرح بالسماع من شيوخه الثقات: الزهري، وعاصم بن عمر، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان.. وهؤلاء أخذوه عن شيخهم الإمام عروة بن الزبير ورواه شيوخ غيرهم عن ابن عباس، لكن هؤلاء الشيوخ غير معروفين والحديث يشهد له ما قبله من الأحاديث وما بعده عدا ما بين المعقوفين فلم أجد له شاهداً. والحديث جزء من حديث بدر الطويل.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري عن ابن مسعود (٣٩٥٢).

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري عن ابن مسعود (٣٩٥٢).

كان ﷺ (يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه على العقبة قالوا: يا رسول الله، إنا براء من ذمامك[1] حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه[2] بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: أجل.

قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصُبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك)[3].

وجاءت البشرى من الله..

وأنزل الله كلامه وعداً صادقاً لا يتأخر، وأمناً يملأ الأجواء والصدور، فأزال بقايا الخوف، وطهر به القلوب المؤمنة.

نزل جبريل بقوله الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾. والشوكة هي جيش قريش، وغير ذات الشوكة هي القافلة.

---

(١) الذمام: الحرمة أي نحن غير مسئولين عنك حتى تسكن في مدينتنا.

(٢) هاجم المدينة.

(٣) هو جزء من حديث ابن إسحاق الطويل وله شاهد عند ابن مردوديه (سيرة ابن كثير ٢/٣٩٥). من طريق محمد بن عمرو ابن علقمة عن أبيه عن جده وجده ولد في عهد رسول الله ﷺ وروايته عن الصحابة أما عمرو فهو حسن الحديث في الشواهد والمتابعات.

أخـذ ﷺ تلك الآيات ونادى رفقة الدرب والإيمان، وقال لهم: (سـيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم غداً)[1].

قال أحد الأنصار وهو أبو أيوب الأنصاري: (فلما وعدنا إحدى الطائفتين، إما القوم وإما العير، طابت أنفسـنا)[2]وطاب المسـير إلى بدر (فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشـركين إلى بدر)[3] ونزل المسلمون بالعدوة الدنيا، أي بحافة الوادي من جهة المدينة (وجاء المشـركون فقال رسـول الله ﷺ: لا يتقدمن أحد منكم إلى شـيء حتى أكون أنا دونه)[4] وأقبل المشـركون من هناك.. من الجهة الأخرى المسـماة بالعدوة القصوى، أي حافة الوادي البعيدة.. البعيدة عن المدينة جهة مكة وكان ذلك في:

٥٢/٩/١٦هـ

في السـادس عشـر من شهر رمضان بنى الصحابة لرسـول الله ﷺ قبة.. هي أشبه بغرفة عمليات المعركة، كان ﷺ يصلي فيها ويدعو، ويوجه ويبشر، وكان أبو بكر معه فيها.

يقـول أحد الصحابـة: (إن النبي ﷺ قال وهو في «قبة له» يـوم بدر: اللهم إني أنشـدك عهدك ووعدك، اللهم «إن شـئت لم تعبد بعد اليوم أبداً» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك، حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك -وهو في الدرع-.

فخرج وهو يقول: سـيهزم الجمع ويولون الدبر، بل السـاعة موعدهم والسـاعة أدهى وأمر)[5]

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سـنده قوي. رواه الطبراني ٤-٢٠٩ من طريق ابن لهيعة ورواه من الطريق نفسه الطبري ٦-١٨٦ والراوي عند الطبري هو ابن المبارك فصح بذلك هذا الجزء من السـند: وشـيخ ابـن لهيعة، يزيد بن أبي حبيب ثقة التقريب ٦٠٠ وقد رواه عن التابعي الثقة: أسـلم بن يزيد التجيبي (التقريب ١٠٤ وأسلم رواه عن أبي أيوب رضي الله عنه.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٨٧٥-٤٨٧٧).

obeikandl.com

خـــرج ﷺ مـــن القبة، وخرج وراءه أبـــو بكر، وخرجت معهما البشـــرى العظيمة: ســـيهزم الجمع ويولون الدبر، وصار ﷺ يتمشـــى ويشير، ثم يمشي ويشير، وإذا أشار إلى موضع من الأرض تكلم، ولهج بالبشرى للجميع.. لقد كان يشير بيده ويتحدث إلى من معه وحياً، فإلى أي شيء كان يشير، وعن أي شيء كان يتحدث؟

مصارع القوم

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ ليخبرنا عن مصارع القوم بالأمس: هذا مصرع فلان إن شاء الله غداً، هذا مصرع فلان إن شاء الله غداً)[1].

ويتحدث أنس بن مالك عن تلك المواقع فيقول: (قال رســـول الله ﷺ: هذا مصرع فلان غداً. ووضع يده على الأرض. وهذا مصرع فلان. ووضع يده على الأرض. وهذا مصـــرع فلان. ووضع يده علـــى الأرض)[2] وكأنه يضه يده علـــى مواضع الحماس في القلوب المؤمنة ليفجرها.

لقد ملأت هذه البشـــرى المؤمنين حماساً ونشاطاً، وأيقنوا بنصر يشرق عليهم مع صباح الغد إن شـــاء الله، فقضوا يومهم ذلك همةً وحركةً.. يســـتعدون وينفذون أوامر قائدهـــم ﷺ، ويدعـــون ربهم نصراً طـــال انتظاره، ويرجونه الظفـــر في هذه الحرب التي قبعت في طريقهم دون موعد، حتى تنكســـر شوكة الباطل، وترتفع راية التوحيد، وتتطاير فلول الشرك مع الرياح.

كان ذلك اليوم مليئاً بالدعاء والعمل والأحلام، وكان يوماً مرهقاً، وكانت ليلة مقمرة.. ليلة فرش فيها القمر بســـاطاً للجميع، لكن القمر افتقد أحبابه إلا رسول الله ﷺ، فلقد خلدوا إلى نوم عميق بعد يوم شاق، كان العمل فيه مرهقاً.

يقول علي بن أبي طالب عن تلك الليلة: (لقد رأيتنا ليلة بدر وما من أحد إلا وهو نائم، إلا رسول الله ﷺ فإنه يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح)[3] أما الصحابة فنام

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (الجنة) والبيهقي (٣/٤٨) واللفظ له.

(٢) سنده صحيح. رواه أبو داود ومن طريقه البيهقي ٣-٤٦: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن ثابت عن أنس. موسى ثقة ثبت من رجالهما والبقية أئمة ثقات.

(٣) سنده صحيح مر معنا. رواه أحمد ١-١٢٥ وغيره عن شعبة أخبرنا أبو إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي، وهؤلاء رجالهما عدا حارثة وهو تابعي ثقة التقريب ١٤٩.

بعضهم بعد أدائهم صلاة العشاء، ثم ناموا جميعاً، وعندما استيقظ علي رآهم نائمين جميعاً، وهاهم الواحد تلو الآخر يهبون من نومهم العميق بعد علي بن أبي طالب، فما الـذي أيقظ علي وأيقظهم..؟ هل هو القمـر..؟ هل هي الليل القمراء التي يحلو معها الحديث والسمر..؟ لا، فالقمر قد اختفى، والتعب أشد من أن يقاوم لكنه:

المطر..المطر

تآلف السـحاب وحجب القمر، وتسـاقط المطر قطرات.. قطـرات، ثم ازدادت القطرات شـيئاً قليـلاً حتى تنبه الصحابـة.. فإذا المطر زخات.. زخات.. يغسـلهم، ويخاطبهم القرآن كالمطر: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾[1].

تحـرك الصحابـة يسـتظلون مـن المطر، أما رسـول اللـه ﷺ فلم يكـن نائماً ليستيقظ..

كان كمـا يصف علي رضي الله عنه: (أصابنـا من الليل طش من مطر، فانطلقنا تحت الشـجر والحجف[2] نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه عز وجل ويقول: اللهم إن تهلك هذه الفئة لا تعبد

فلما أن طلع الفجر نادى: الصلاة عباد الله

- الصلاة جامعة -

فجاء الناس من تحت الشـجر والحجف فصلى بنا رسـول الله ﷺ وحرض على القتال)[3] ثم احتضنت رسول الله ﷺ إغفاءة قصيرة رأى فيها:

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١١.

(٢) الحجفة ترس من جلد.

(٣) سنده حسن. رواه الطبري التفسير ٦-١٩٣: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا مصعب بن المقدام، حدثنا إسرائيل، حدثنا أبو إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي. وقد مر معنا، لكن الذي جعل السند حسناً هو أنه من رواية مصعب، وهو حسن الحديث من رجال مسلم. التقريب ٢-٢٥٢ وهارون الهمداني صدوق التقريب ٥٦٨.

obeikandl.com

بشرى ومنام

ربنا سبحانه يتحدث عن ذلك المنام القصير فيقول: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[1]..

أشـــرقت في وجوه الصحابة شـــمس جديدة، ويوم جديد، فتنفسوا هواءً منعشاً، وصباحـــاً طرياً بالصلاة والمطر.. الأرض أمامهم ســـاكنة ملبدة لا غبار فيها، والأجواء تملأ صدور المؤمنين حماساً وثقة بالله ووعده، ورسول الله ﷺ يحرضهم على القتال.. يشـــرع لهم أبواب الشـــهادة والجنة، ويجعل من أصحابه أحبابـــاً لله فـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[2].. والرسول ﷺ يحب أن يكونوا كذلك، لذلك نظمهم وجعلهم صفاً كأنهم بنيان مرصوص، وصار يمشـــي بينهم يصفهـــم ويعدل صفهم، ثم قال لهـــم: (إن جمع قريش عند هـــذا الضلع الحمراء من الجبل)[3].

جمع المشركين عند الجبل

بدأوا بالنهوض مثقلين، وصداع الخمر يرن في رؤوسهم.. بدأوا بالنهوض وقلوبهم شتى، وأفكارهم شـــاردة، والنظام عنهم شارد.. بعضهم كان لا يريد الخروج، والبعض يـــرى أن من الخطأ قتال أبنـــاء عمومتهم وإخوانهم وأبنائهم، وهناك من خرج أشـــراً وبطراً، وقد أغراه قلة عدد المؤمنين فضمن النصر واطمأن للنتيجة، و(لما اطمأن القوم بعثوا عمر بن وهب الجمحي فقالوا: أحرز لنا القوم من أصحاب محمد.

فاســـتجال حول العســـكر ثم رجع إليهـــم فقال: ثلاثمائة رجل يزيـــدون قليلاً، أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد.

فضرب في الوادي حتى أبعد فلم يرَ شيئاً، فرجع إليهم فقال: ما رأيت شيئاً، ولكن قد رأيت يا معشـــر قريش البلايا تحمـــل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٣.

(٢) سورة الصف.

(٣) رواه أحمد بسند صحيح وهو جزء من حديث علي الطويل الذي مر معنا.

ليس لهم منعة إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم)[1].

سكت الجميع وهم يستمعون إلى هذا الوصف المرعب، وتسلل من بين هذا الحشد الصامت رجلٌ حكيم، واسمه أيضاً: حكيم.. (حكيم بن حزام) تأثر بكلام عمرو بن وهب الجمحي، وأحس بشيء خطير تحمله نواضح يثرب، (فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد.. إنك كبير قريش الليلة، وسيدها والمطاع فيها، [هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت][2]؟ هل لك ألا تزال تذكر منها بخير إلى آخر الدهر؟

قال: وماذا يا حكيم؟

قال: [إنكم لا تطلبون من محمد إلا دم ابن الحضرمي][3] ترجع بالناس، وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي.

قال عتبة: قد فعلت، [أنا أتحمل بديته][4] أنت علي بذلك إنما هو حليفي، فعلي عقله وما أصيب من ماله، فأْتِ ابن الحنظلية [يعني أبا جهل فقل له: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمك][5] فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره؟

ثم قام عتبة خطيباً فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون)[6].

---

(١) أثرٌ رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري (٤٢/٢): حدثني إسحاق بن يسار وغيره من أهل العلم عن أشياخ من الأنصار وهذا السند صحيح فوالده ثقة وقد سمع من بعض الصحابة (التقريب ٦٢/١) وهؤلاء الأشياخ ربما كانوا من الصحابة فإن كانوا كذلك فالسند متصل وللأثر شاهد يقويه أيضاً انظر ما بعده.

(٢) هذه الزوائد ليست عند الطبري (انظر ابن كثير ٤٠٧/٢).

(٣) هذه الزوائد ليست عند الطبري (انظر ابن كثير ٤٠٧/٢).

(٤) هذه الزوائد ليست عند الطبري (انظر ابن كثير ٤٠٧/٢).

(٥) هذه الزوائد ليست عند الطبري (انظر ابن كثير ٤٠٧/٢).

(٦) هذا الأثر هو بقية الأثر السابق (انظر ابن كثير ٤٠٧/٢ - السيرة) وشاهده عند الطبري عن حكيم بن حزام، وفيه ضعف ليس بالشديد. (٤٤٣/٢).

كان عتبـــة بعيد النظر.. خائفاً من مصير قومه الأســـود الذي يقودهم إليه رجل طائش حاقد هو أبو جهل.. كان عتبة على جمله الأحمر يدور بين المشـــركين.. يحاول ثنيهم عن عزمهم، فهو يرى الموت ســـهاماً في نظرات أصحاب محمد ﷺ، ويرى العار في قتل أبناء العم وقتالهم.. كان عتبة على تلك الحال يناشد، ويمشي ويناشد، ويحاول حقن دماءٍ توشـــك أن تُســـفح على جنبات بدر.. يحاول ردم مقابر ومآسٍ كالهاوية. لا بد أن أمية بن خلف كان في تلك اللحظات يستمع إليه، ويستبشر به، ويحتفي بكلماته وقلبه يرقص طرباً بما يقول، ولســـان حاله يقول: لله درك يا أبا الوليد.. كم أنت رائع، فأنت تنقذني من موت ينتظرني.. موت وعدني به محمد.

لم يكن من حول عتبة فقط هم الذين يثنون على رأيه.. رسول الله ﷺ كان يراقبه مـــن بعيد.. من الجهة الأخرى كان ينظر إليه، ولم يعرف من هو حتى الآن، لكنه أدرك من حركاته أنها حركات رجلٍ نصوح مشفق على قومه. (نظر رسول الله ﷺ إلى عتبة وهـــو على جمل أحمر فقال: إن يكن عند أحد من القوم خير فهو عند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشـــدوا - وهو يقول: يا قوم أطيعوني في هؤلاء القوم، فإنكم إن فعلتم لم يزل ذلك في قلوبكم، ينظر كل رجل إلى قاتل أخيه، وقاتل أبيه، فاجعلوا جبنها برأســـي وارجعوا)[1]. كان عتبة يريد أن يتحمل عارها وشـــنارها، ويجنب قومه جحيم الحرب ونارها.

أراد ﷺ أن يعـــرف مـــن هو صاحب الجمل الأحمر (فقـــال النبي ﷺ للزبير: ناد بعض أصحابك، فســـله من صاحب الجمل الأحمر؟ قالوا: عتبة ابن ربيعة، وهو ينهى عن القتال وهو يقول: يا قوم إني أرى قوماً مســـتميتين، والله ما أظن أن تصلوا إليهم حتى تهلكوا)[2].

---

(١) سنده جيد وهو صحيح بالشواهد. رواه البزار ٢-٣١٣ - زوائد. يزيد بن هارون أنبأنا جرير بن حازم، عن أخيه يزيد بن حازم، عن عكرمة عن ابن عباس: يزيد ثقة متقن وشـــيخه ثقة إلا عن قتادة وهذا ليس منها فشـــيخه هنا هو أخوه يزيد وهو ثقة (التقريب ٦٠٦ و١٣٨ و٦٠٠ وعكرمة غني عن التعريف. وللحديث شواهد.

(٢) سنده صحيح. رواه البزار (٣١١/٢) بالسند الذي مر معنا كثيراً وهو: إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة عن علي. وتلميذ إسرائيل هو عثمان بن عمر العبدي: ثقة. (التقريب ١٣/٢) وتلميذه الثقة الثبت: محمد ابن المثنى المعروف بـ (الزمن) (التهذيب ٤٢٥/٩).

والتفت ﷺ فرأى عمه حمزة في موقع قريب من المشركين فأراد أن يتحقق من قول أصحاب الزبير ويتأكد: (فقال رسول الله ﷺ: يا علي، ناد لي حمزة -وكان أقربهم من المشركين- منْ صاحب الجمل الأحمر؟ وماذا يقول لهم؟

فجاء حمزة فقال: هو عتبة بن ربيعة، وهو ينهى عن القتال ويقول لهم: يا قوم إني أرى قوماً مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قوم، اعصبوها اليوم برأسي وقولوا: جبن عتبة بن ربيعة، وقد علمتم أني لست بأجبنكم)[1].

كان عتبة يثير الحسرات والزفرات، فابنته هند زوجة أبي سفيان تحبه وتخشى عليه، أما ابنه الوليد وأخوه شيبة فكانا رهن إشارته، لكن أين ابنه الآخر؟

حسرة على عتبة

كان عتبة فوق جمله الأحمر يثير إعجاب النبي ﷺ برأيه السديد، لكنه كان يثير حسرة لدى أحد الشباب المؤمنين خلف رسول الله ﷺ.. كأني بهذا الشاب يتطاول، ويتطاول ليحظى بنظرة أخيرة لصاحب هذا الجمل الأحمر.. كأني به يرفع رأسه ليراه، فيتحرك قلبه نحوه بالأسى والحزن، والذكريات الحلوة المريرة. فعندما كان هذا الشاب طفلاً كان صاحب الجمل الأحمر يحمله ويداعبه.. كان يسير معه في طرقات مكة وكان يكسوه أحسن الثياب، ويطعمه أطيب الطعام.. كم مرة قبله، وكم مرة عانقه، وكم مرة تعثر فحمله، وبكى فأسكته بما يرضيه، ومرض فبحث له عمن يداويه.. ذكريات حلوة ومريرة، فمن يكون هذا الشاب، وما صلته بهذا الشيخ الكبير؟

إنه: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وهذا الشيخ هو أبوه الذي رباه ورعاه وحنا عليه، وهو اليوم عدوه.. والده اليوم أعقل وأحكم من في معسكر قريش، فأين تلك الحكمة، وأين هذا العقل قبل اليوم؟! أين الحكمة في الخروج من أجل أصنام لا تستطيع الحراك من أماكنها؟ أين الحكمة في عبادة حجر أو خشبة تفتقر إلى أبسط صفات السيادة، ألا وهي إصدار الأمر أو النهي..؟!!

---

(١) حديث صحيح مر معنا. رواه أحمد بالسند السابق.

كان هذا الشاب يتحسر على أبيه، مثلما تحسر علي بن أبي طالب على أبيه، وهو يشـــاهد رجاءات النبي ﷺ تتحطم على صخرة العناد في قلب أبي طالب، ليموت أبو طالب وهو كتلة من العناد، وهاهي الصورة تتكرر على أرض بدر.

كان عتبة خائفاً أشـــد الخوف على مجد قريش أن يدفن في هذا الصباح الممطر الجميل.. عتبة يرى الموت يطل عليهم من فوق الجبال.. يرى الموت في السحاب، وفوق نواضح يثرب، لذلك أرســـل حكيم بن حزام إلى أبي جهل لعله يتراجع عن غيه. أرســـل حكيم بن حزام إلى أبي جهل ليعرف رأيه فهو صاحب شر مستطير، وعقل صغير. أبو جهل ســـفيه متهور.. قد يثير الفتنة والمشاكل بين جيش قريش نفسه، فيكونون غنيمةً ســـهلةً لمحمد وأصحابه.. غنيمة أســـهل من قافلة أبي سفيان، فلا بد من كلمة واحدة، ورأي واحد ولو كان مراً.

توجه حكيم كما طلب منه عتبة، ليروي ما حدث فيقول: (فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد نثل درعاً فهو يهنئها[1] فقلت له: يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا؟ فقال: انتفخ والله ســـحره حين رأى محمـــداً وأصحابه، فلا والله لا نرجع حتـــى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه، فقد تخوفكم عليه)[2]. كان أبو جهل يســـتخدم العواطف.. يثيرها.. يفجرها فتنةً.. يفجرها ثارات وســـيوفاً، وهاهـــو يقلب الحقائق.. يجعل من رأي عتبة العاقل جبناً، وخوفاً على ابنه أبي حذيفة الذي بين صفوف المؤمنين. ويبرر هذا الرأي الساقط بأن عتبة يرى أن محمداً ﷺ وأصحابه.. لا يأخذون من المشركين جهداً أكثر من جهدهم في تناول وجبة من الطعام قد طبخ فيها جمل من الجمال.

إنه يرى المســـلمين جزوراً شهياً قد قدم على مائدة بدر، وقد حان موعد التهامه، وابن عتبة لقمة في هذه الوجبة الشـــهية، وقد خشـــي عتبة على ابنه من أفواه قريش وسيوفهم المتلمظة المتعطشة.

---

(١) أي يصلحها ويهيئها ويطليها بعكر الزيت.

(٢) أثر حســـن. رواه ابن إســـحاق ومن طريقه الطبري (٢/٤٤٤) وهو حديث طويل ضعيف عدا ما كان له من الشواهد ما يقويه كهذا الجزء الذي يشهد له ما عند البزار التالي.

أبــو جهل يقول: (انتفخ والله ســحره حــين رأى محمداً وأصحابــه، إنما محمد وأصحابــه كأكلة جــزور لو قد التقينا)[1] ويفقد أمية بن خلــف آخر آماله في الحياة، فلقد تحرك ابن الحنظلية البغيض مفتشاً عن إثارة أكثر لهذه القلوب السوداء، ومفتشاً عن جمر يلقيه في تلك النفوس كي تتحرق للثأر. أرسل إلى عامر بن الحضرمي الذي يتحرق للأخذ بثأر عمر بن الحضرمي الذي قتلته سرية (نخلة) السابقة.

أرســل أبو جهل المزيد من الجمر ليلقيه في صدر عامر المتلهف للثأر.. (بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع الناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك ومقتل أخيك. فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صرخ:

واعمراه..

واعمراه..

فحميت الحرب، وحقب أمر الناس، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد علــى النــاس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة، فلما بلغ عتبــة قول أبي جهل: انتفخ والله سحره. قال: سيعلم مصفر أسته من انتفخ سحره أنا أم هو)[2].

لــم يكتف أبو جهل ببلوغ صراخه إلى عتبــة.. لقد تحرك الطاغوت نحو عتبة بن ربيعة لاســتفزازه، ليوظفه باتجاهٍ شــقهُ أبو جهلٍ، ليحوله من نقطة ضعف وســكينة، إلــى بــركان تتفجر منه المعركة حالاً.. توجه أبو جهل إلــى عتبة صارخاً بوجهه: (أنت تقــول ذلك! والله لو غيرك يقولــه لأعضضته، قد ملأت رئتك جوفــك رعباً)[3] فثار عتبة وانفجر في وجه أبي جهل قائلاً: (إياي تعير يا مصفر أســته؟ ســتعلم اليوم أينا الجبــان)[4] (ثم التمس عتبة بيضة ليدخلها في رأســه، فما وجد في الجيش بيضة[5] تسعه من عظم رأسه، فلما رأى ذلك اعتجر[6] على رأسه ببردٍ له)[7].

---

(١) حديث صحيح. وهو جزء من حديث البزار السابق (٣١٣/٢ - الزوائد).

(٢) جزء من حديث ابن إسحاق السابق القوي. ومصفر أسته: الذي يُخرج الريح من الجبن.

(٣) حديث صحيح. وهو جزء من حديث الإمام أحمد وقد مر معنا.

(٤) حديث صحيح. وهو جزء من حديث الإمام أحمد وقد مر معنا.

(٥) الخوذة التي توضع على الرأس في الحروب.

(٦) لف البرد على رأسه كالعمامة... والبرد قماش يلتحف به.

(٧) جزء من أثر ابن إسحاق السابق وهو حسن.

نجح أبو جهل بتحريضه لغضب عتبة، فأوصله إلى حالة شديدة من التوتر والتهور، وأفلح الطاغوت في إثارة حمية أخيه وابنه (فبرز عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد حمية)[1] يريدون الحرب.

سمع المسلمون ذلك الضجيج فتزينوا للجنة، وتوجه النبي ﷺ إلى جبار السموات والأرض يناشده ويناشده، ويستمطره رحمةً ونصراً. فنظر إليه أبو بكر الصديق فرق لحاله، وأشفق عليه، ثم تحرك نحوه بكل رفق، والتف حوله وضمه ضمةً لا يجرؤ عليها إلا أبو بكر، فمشاعر أبي بكر لا يعبر عنها إلا أبو بكر.

فكم أبكى ذلك المشهد من الصحابة عندما (نظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال:

اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً.

فما زال يستغيث بربه ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرده -ألقاه على منكبيه[2]- ثم التزمه من ورائه، ثم قال: كفاك يا نبي الله بأبي وأمي[3] مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[4].

لقد فعل ﷺ كلما يمكنه فعله.. فعل الأسباب كلها، ثم توجه إلى الله يناشده ويدعوه. هذا هو التوكل الصحيح الذي رسمه لأتباعه:

فعل السبب، ولكن جعل النتائج على الله

فعل ﷺ ذلك كله وما زال يفعل:

شاور المهاجرين والأنصار قبل الانطلاق.

---

(١) حديث صحيح. وهو جزء من حديث الإمام أحمد وقد مر معنا.
(٢) لفظ مسلم.
(٣) لفظ ابن جرير.
(٤) حديث صحيح. رواه مسلم ٣-١٣٨٣ وغيره.

ثم قطع الأجراس من أعناق الإبل إمعاناً في السرية.

رفض أن ينتظر أي شخص لم يكن جاهزاً.

أبقى هدف المسير سراً عند انطلاقه.

رفض أن يصحبه أي مشرك حتى ولو كان صادقاً ذا حمية وشهامة.

سمح للقادرين على القتال فقط بمصاحبته.

أمرهم بالتعاقب على الرواحل حتى يهون عليهم المسير قليلاً وهو ليس بهين.

استطاع أن يعرف عدد الخارجين للقتال من قريش.

استشار أصحابه في المضي أو العودة فوافقوا على المضي.

سبق ﷺ المشركين إلى العدوة الدنيا حيث الماء الآبار.

بنى المسلمون لهم حوضاً يشربون منه أثناء المعركة.

وبعد ذلك وقبله توجه إلى الله يناشده ويدعوه.

يقول علي رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ لما أصبح ببدر من الغد أحيى تلك الليلة كلها وهو مسافر)[1]، والسفر إرهاق ومشقة، ومع ذلك يقول علي: (لقد رأيتنا ليلة بدر وما منا أحد إلا وهو نائم، إلا رسول الله ﷺ فإنه يصلي إلى شجرة، ويدعو حتى أصبح)[2].

عمل ودعاء.. هذا هو منهج نبي الله ﷺ، وهذا هو توكله على الله، وبعد الدعاء بدأ العمل من جديد، فالصحابة قليلون، ولا بد من خطة محكمة، وتطبيق صارم كالسيف، فالخطأ يكلف كثيراً، وعدم تنفيذ الأوامر كارثة، فالمعركة تحتاج إلى كل الجهود.. تحتاج

---

(١) سنده حسن مر معنا كثيراً. رواه أبو يعلى ومن طريقه ابن حبان (موارد ٤٠٩): حدثنا الأزرق ابن علي أبو الجهم، حدثنا حسان بن إبراهيم، حدثنا يوسف بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي. الأزرق صدوق وشيخه حسن الحديث من رجال الشيخين التقريب ٩٧ و١٥٧ ويوسف حفيد أبي إسحاق ثقة من رجال الشيخين.

(٢) حديث صحيح مر معنا.

obeikandi.com

للجميع دون استثناء، وفي أمسّ الحاجة تلك، وفي أحرج الظروف وأصعبها يصل صحابي ووالده للمشاركة مع نبيهم ﷺ، ومع ذلك يرفض ﷺ مشاركتهما .. رغم صدقهما وإخلاصهما، وتحملهما المشاق في السير نحوه. ذلك الصحابي هو حذيفة بن اليمان.

لماذا يرفض ﷺ مشاركة حذيفة ووالده؟

سؤال بحجم المعركة، والإجابة بحجم محمد ﷺ. ليس هناك أزمة ثقة بحذيفة، بل إن حذيفة فوق الشبهات، كيف لا وقد سلمه الرسول ﷺ يوماً قائمة سرية بالأسماء والأحداث التي سيفصح عنها التاريخ..؟ سلمها ﷺ لأمانة حذيفة وأعماقه.

الأمر هنا لا يتعلق بالثقة.. الأمر يتعلق بالرسول ﷺ وبالقادة الإسلاميين والدعاة من بعده. حذيفة مر من هناك.. هناك حيث صادفه المشركون هو ووالده حسيل. سألنا حذيفة عن أمر يستطيع إخبارنا به.. إنه ليس سراً: ما الذي منعك يا حذيفة من المشاركة في غزوة بدر؟

فيجيب حذيفة رضي الله عنه قائلاً: (ما منعني أن أشهد بدراً، إلا أنني خرجت أنا وأبي (حسيل) فأخذنا كفار قريش، فقالوا: إنكم تريدون محمداً. فقلنا: ما نريد إلا المدينة.

فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرف إلى المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم)[1].

إنها إجابة بحجم محمد ﷺ، والتزام أعيى من يهتبلون ثماراً ناضجة وغير ناضجة.. أعيى زعماء ودعاة ذوي نظرة آنية.. لا يرون إلا ما أمامهم: (نفي لهم بعهدهم)[2] وهم المشركون الذين يعبدون الأصنام، ويحاربون الله ورسوله، وما خرجوا إلا لطمس التوحيد وسفك دماء الموحدين.. خرجوا لذبح نبي الإسلام، وتدمير دولته، ومع ذلك (نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم)[3].

---

(١) سنده حسن رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٦٣: حدثنا أبو أسامة، عن الوليد بن جميع، حدثنا أبو الطفيل، حدثنا حذيفة بن اليمان. الوليد تابعي حسن الحديث ومن رجال مسلم التقريب ٥٨٢ وتلميذه حماد بن أسامة ثقة ثبت التهذيب ٣-٢ وأبو الطفيل صحابي.

(٢) حديث صحيح وهو الحديث السابق.

(٣) حديث صحيح وهو الحديث السابق.

ما أعظم هذا الدين وأنقاه وأرقاه.. ياله من تحضر وسمو غير مسبوق. إذا كان هذا هو حجم الاحترام للعلاقة - العهد مع الأعداء، فكم هو حجمه بين المسلم وأخيه؟!!

سؤال عرف الإجابة عليه حذيفة ووالده ووعياه، فودع النبي ﷺ صاحبيه وانصرفا وهما ثقيلان لا يطيقان ذلك الوداع.

تَوَجَّهـا والحزن إلى المدينة، وتوجه ﷺ إلـى صحابته بعد هذا الدرس الذي تغلغل في أعماقهم، وسرى في دمائهم، وعاد ﷺ إلى العمل من جديد، فجعل ﷺ لجيشه رايةً ولـواءً، والرايـة هي (علم الجيش) واللواء أصغر منها و(كانت رايته ﷺ سـوداء، ولواؤه أبيض)[1] .. رايته (كانت سوداء مربعة من نمرة[2][3]. وتحت هذه الراية نظم ﷺ أصحابه صفوفـاً أو صفاً، لأن الله يحب ذلـك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[4] بنيان متماسك وقوي، ولذلك فإن رسول الله ﷺ لما رأى خللاً في الصف سارع إلى تقويمه.

يحدثنـا أبو أيوب الأنصاري عن ذلك فيقـول: (صففنا يوم بدر فندرت منا نادرة أمام الصف، فنظر رسـول الله ﷺ إليهم فقال: معي، معي)[5] وجعل جزءاً منهم خلف الصفوف، وفي أماكن مناسـبة تمكنهم من مراقبة تحركات الأعداء، وتقديم المعلومات لرسول الله ﷺ، وكان من بين هؤلاء ذلك الغلام الذي يدعى: (حارثة بن سراقة) وهو أنصاري من بني النجار، وقد أدرك ﷺ أن هذه القلة المؤمنة تحتاج إلى شـعار يعرف بعضهم بعضاً به إذا حمي الوطيس، والتحمت السيوف بالأعناق والرؤوس فكان:

---

(١) حديث حسن. صحيح ابن ماجة (١٣٣/٢).

(٢) بردة من صوف.

(٣) حديث صحيح. صحيح أبي داود (٤٩١/٢) عدا قوله: مربعة.

(٤) سورة الصف.

(٥) سـنده قوي. رواه أحمد (٤٢٠/٥) من طريق موسـى بن داود وعبد الله بن المبارك حدثنا.. وأخبرنا ابن لهيعة حدثني يزيد بن أبي حبيب أن أسلم أبا عمران التجيبي حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول:... وهذا السـند قد خلا من علة اختلاط ابن لهيعة لأن أحد تلميذيه هو ابن المبارك.. وشـيخه يزيد بن أبي حبيب المصري ثقة فقيه من رجال الشيخين (التقريب ٣٦٣/٢) وقد سمع من التابعي المصري الثقة أسلم ابن يزيد التجيبي (التقريب ٦٤/١).

الصوف الأبيض شعاراً للمسلمين

قال علي بن أبي طالب: (كان سِيَمَا أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر: الصوف الأبيض)[1].

وقد كان لبعض الصحابة علامات يعرفون بها، فحمزة مثلاً (معلم بريشة نعامة في صدره)[2] كان أسداً عليه ريش النعام.

أما الزبير فعلامته يحدثنا بنفسه عنها فيقول: (كان على الزبير يوم بدر عمامة صفراء معتجراً بها)[3] ولهذه العمامة الصفراء أصداء في السماء تنتظر النزول سنعرفها بعد قليل، وسنعرف معها علامتين لا يراهما أحد.. علامة لأبي بكر، وعلامة لعلي رضي الله عنهم أجمعين، ولكن قبل ذلك كان هناك علامة للجميع.. علامة في العيون والنفوس.. علامة غشيت المؤمنين كلهم إنها:

النعاس وشيء آخر

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[4] لقد ألقى الله النعاس على المؤمنين أمناً منه وسلاماً، وثقة بنصر الله، كما بث في نفوسهم شيئاً جعلهم يتحفزون للقتال (لقد شجع الله المسلمين على لقاء عدوهم، وقللهم في أعينهم حتى طمعوا فيهم)[5].

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٥٤ بالسند الصحيح الذي مر معنا كثيراً: إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة عن علي.. وشيخه وكيع بن الجراح إمام ثقة.

(٢) رواه ابن إسحاق بسند وغيره عنه: حدثني عبد الواحد بن أبي عوف، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن عوف. عبد الواحد ثقة وليس كما قال الحافظ صدوق يخطئ. راجع تعليقي على التقريب، وسعد ووالده تابعيان ثقتان من رجالهما.

(٣) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٦١ من طريقين أحدهما: حدثنا عبدة، عن هشام، عن عباد بن حمزة عن الزبير، وعبدة بن سليمان ثقة ثبت التقريب ٣٦٩ وهشام ثقة مر معنا كثيراً، وشيخه تابعي ثقة وروايته عن أسماء وعائشة وجابر ووالده وللحديث شواهد.

(٤) سورة الأنفال: الآية ١١.

(٥) رواه ابن إسحاق بسند صحيح ومن طريقه الأموي (سيرة ابن كثير ٢/٤٣٤) حدثني الزهري عن عبد الله ابن ثعلبة بن صعير. الزهري تابعي ثقة معروف وشيخه صحابي.

كان الصحابة مزيجاً من التحفز والنعاس الغريب، وكان الوحي يتنزل على الملائكة أن يهبطوا إلى أرض المعركة لتثبيت المؤمنين، حيث يقول سبحانه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[1]. لكن أين الملائكة؟ بل أين رسول الله ﷺ في هذه اللحظات الحرجة، التي بدأت فيها أصوات المشركين بالارتفاع والشجار من أجل المعركة؟ أين رسول الله فهو ليس بين الصفوف، وليس مع النظار وليس عند الحوض؟

أين رسول الله وأين الملائكة

لقد ذهب قبل قليل إلى العريش، وتبعه أبو بكر.. إنه الآن داخل العريش، وهو يعاني حالة من النعاس، ورأسه يخفق..

هاهو لقد أفاق من نعاسه، وخرج والبشرى تحمله ويحملها.. إنه يبشر صاحبه أبا بكر بشيء مفرح فما هو؟!

يقول أحد الصحابة: (خفق[2] رسول الله ﷺ خفقة في العريش، ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل معتجر بعمامته آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع، أتاك نصر الله وعدته)[3] (هذا جبريل آخذ رأس فرسه عليه أداة الحرب)[4] هبط جبريل مُعْتَمّاً.. ما لون عمامته، وهل هبط لوحده؟

سنعرف بعد قليل، فرسول الله ﷺ يتجه مبشراً أصحابه بما حدث، ومحرضاً شجاعتهم للتضحية بأرواحهم في سبيل الله. إنه يحدثهم.. يوقظ فرحهم بالجنة والشهادة، لقد (خرج ﷺ إلى الناس فحرضهم)[5] وعندما يحرض رسول الله ﷺ لا يقول إلا حقاً، وإذا قال.. تحرك الجميع من حوله.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١٢.

(٢) حرك رأسه وهو ناعس.

(٣) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقة الأموي (سيرة ابن كثير ٢-٤٣٤): حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير.. وقد صرح ابن إسحاق بالسماع من شيخه التابعي الثقة، وعبد الله بن ثعلبة صحابي.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري.

(٥) رواه ابن إسحاق وهو جزء من حديثه الطويل وهو ضعيف إلا ما كان له ما يقويه. كهذه العبارة عند أحمد وسندها صحيح وقد مر معنا (سيرة ابن كثير ٢-٤٢٢).

يقول ﷺ وهو يتحدث عن الصفوف: (قيام ساعةٍ في الصف للقتال في سبيل الله خير من قيام ستين سنة)[1] و(الشهداء الذين يقاتلون في سبيل الله في الصف الأول، ولا يلتفتون بوجوههم حتى يقتلوا، فأولئك يلقون في الغرف العلا من الجنة، يضحك إليهم ربك، إن الله تعالى إذا ضحك إلى عبده المؤمن فلا حساب عليه)[2].

ويقول ﷺ: (موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود)[3] وإن (للشهيد عند الله سبع خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويشفع في سبعين من أهل بيته)[4].

إذا فهي الرحلة للنصر في الدنيا والتمكين لدين خالق هذه الدنيا، أو السفر العاجل إلى الجنة.. لا العودة إلى تلك الصفة أو بيوت الحجر والطين، بل السفر إلى قصور بحجم الأحياء والمدن.. قصور ليست من الحجارة أو الطين أو القش، بل من الذهب أو الفضة أو المرجان، أو اللؤلؤ أو الياقوت، أو الألماس، ليس فيها دورات للمياه، فأهل الجنة و(أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك)[5].

إذا كانوا بهذا الجمال، وأجسادهم بهذه النضارة، ولا إفرازات مؤذية لتلك الأجساد، ولا روائح منتنة أو كريهة تنبعث منهم، وإذا كان عرقهم ورائحة آباطهم أرقى من كل أنواع العطور الدنيوية، فلك أن تحلق في الخيال حتى تتعب، كي تصف حبيباتهم المؤمنات، وفتنتهن التي لو بدى شيئا منها لذهل رجال الأرض صالحهم وفاسدهم.. إنها الجنة، حيث السيارات والطائرات واليخوت في منتهى الروعة وجمال التصميم والرفاهية.. ليست حكراً على أحد، وليست لأناس دون ناس.

---

(١) حديث صحيح. صحيح الجامع (٢-٨١٥).
(٢) حديث صحيح. المصدر السابق (١-٦٩٥).
(٣) حديث صحيح. المصدر السابق (٢-١١٢٧).
(٤) حديث صحيح. السابق (٢-٩٢٠).
(٥) صحيح البخاري ٣-١٢١٠.

إنها الجنة حيث لا أمراض ولا قبح ولا ترهل ولا شيخوخة ولا ملل، ولا حسد ولا كراهية، ولا شرك ولا جهل ولا تخلف ولا حروب ولا دمار ولا خوف من القادم والمجهول، بل اقتحام لا ينقطع ولا يتوقف للجديد والجميل والرائع والمثير، واكتشاف متواصل، وأجمل ما فيها رؤية الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى.

إن من يسمع كلمات النبي عليه السلام، ليهون أمامه الموت والفناء، بل إن الموت يهون ويسهل للشهيد حقاً، فالموت يداعب الشهداء مداعبةً.. بشر بذلك رسول الله ﷺ فقال: (الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم مس القرصة)[1].

إن من يستمع إلى هذه الأحاديث وهو على سريره سيبحث عن أي معركة يكون فيها شهيداً، فكيف لو سمعها رجل يحمل سلاحه وسط الصفوف. بل كيف إذا سمعها من يرى زخات المدد من السماء.. يبشر بها رسول الله ﷺ أصحابه، ويبشر بها الله فيقول سبحانه: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾[2] وكانوا خير مدد، وكانوا خير الملائكة.

هذا كبيرهم: جبريل عليه الصلاة والسلام يصفهم بنفسه، فقد (سأل جبريل النبي ﷺ: كيف أهل بدر فيكم؟ قال ﷺ: خيارنا.

قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة هم خيار الملائكة)[3].

أما كبار الملائكة: ميكائيل وإسرافيل، فقد كان في نزولهم تكريماً لأبي بكر الصديق، ولعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فلقد (قيل لأبي بكر الصديق وعلي يوم بدر: مع أحدكما جبريل، ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم، يشهد القتال، أو يقف في الصف [ولا يقاتل][4].

---

(١) حديث صحيح. السابق (١-٦٩٦).

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٢٤.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٩٣) والبيهقي (١٥١/٣) واللفظ له.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن أبي شيبة واللفظ له عدا ما بين المعقوفين ٧-٣٥٣ والبيهقي ٣-٥٥ وأحمد والبزار (الزوائد ٢-٣١٤) من طرق عن مسعر بن كدام الهلالي وهو ثقة ثبت فاضل (التقريب ١٨٧/٢) عن شيخه أبي عون الثقفي وهو ثقة من رجال الشيخين (التقريب ١٨٧/٢) عن شيخه التابعي الثقة أبي صالح عبد الرحمن بن قيس الحنفي (التقريب ٤٩٥/١).

لقد ثارت المعارك في نفوس الصحابة، واستعر لهيبها في دمائهم، فقال ﷺ لهم قولاً ينظم حماسهم وتوثبهم، ويسدد رميهم وسيوفهم.. قولاً يفتك بأعدائهم.

ها هو أحدهم أبو أسيد الساعدي ممتلئاً بالحماس والتوثب، سألناه: ماذا قال لكم نبينا يا أبا أسيد الساعدي فقد كنت بين الصفوف؟

فقال رضي الله عنه: (قال رسول الله ﷺ حين اصطففنا يوم بدرٍ: إذا أكثبوكم - يعني إذا غشوكم - فارموهم بالنبل، واستبقوا نبلكم)[1].

يكاد الصبر يفتك بالصف المؤمن.. ذلك الصف المرصوص كالبنيان، إلا لبنة قويةً كانت تتململ.. تشعر بالحرج.

إنه عبد الرحمن بن عوف، فما الذي جرى له؟ ولماذا يشعر بالإحراج وكأنه يريد أن يغير مكانه؟

عبد الرحمن بن عوف يتمنى مكاناً آخر

أيتمنى ابن عوف أنه كان في بيته، حتى لا يقاتل عشيرته وأبناء عمومته؟ أم هو خائف؟

الأمر ليس كذلك، فليست هذه طباع عبد الرحمن بن عوف، لكن القدر ساقه ليكون بين غلامين صغيرين في الصف.. كان ينظر يميناً فيرى غلاماً، وينظر عن يساره فيرى مثل ذلك. ماذا سيفعل ابن عوف؟ لم يمهله الغلامان، لقد بادراه بالهمس. كان همساً غريباً.. كان كل واحد منهما لا يريد أن يُسمع صاحبه ما يقول. ما قصة هذين الغلامين؟

سألنا عبد الرحمن بن عوف عما جرى له مع هذين الغلامين فقال: ([إني لواقف] يوم بدر في الصف، فنظرت عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما، فغمزني أحدهما [سراً من صاحبه] فقال: يا عم أتعرف أبا جهل؟ فقلت: نعم، وما حاجتك إليه؟ قال: أخبرت

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣-٧٠) وغيرهم.

أنه يسب رسول الله ﷺ، [عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه] والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك.

فغمزني الآخر فقال لي أيضاً [سراً من صاحبه] مثلها، [فما سرني أنني بين رجلين مكانهما]، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا إن هذا صاحبكما الذي سألتماني)[1]

سلَّ كل فتىً سيفه ليسبق صاحبه إليه، لكننا سنسبق الفتيان إلى أبي جهل. ها هو.. إنه يحرض الناس على القتال، بل إنه يفعل أمراً عظيماً طالما كفر به، إنه يدعو الله وحده.. إنه لا يدعو الأصنام.. لماذا؟

هل أسلم أبو جهل

هل أسلم في اللحظات الأخيرة؟ يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (إن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم [أينا كان] أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرفه فاحنه الغداة، فكان المستفتح)[2].

لم يسلم أبو جهل.. كان يريد استدراج سذاجة قومه أكثر فأكثر للقتال..

كان لا يريد أن تقع كارثة، فزعامته لقريش مرهونة بهذه المعركة، وببقاء رسول الله ﷺ حياً.. كأني بأمية بن خلف يستمع إلى دعائه فيقول: لعنة الله عليك من أفاك..

وقد أنزل الله على نبيه آيات تبشر أبا جهل بما أراد فقال سبحانه: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] وأبو جهل ليس منهم.. إنه يحاول أن يكرس وهماً في نفوس أتباعه بأنهم على حق. لم يكتف أبو جهل بالاستفتاح والاستنصار من الله، لقد هرع إلى عتبة بن ربيعة ليسخر منه أمام الجميع، وليجعله أضحوكة وعبرة لمن يفكر بالتراجع عن الحرب مجرد تفكير.

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٤٤ والزوائد له أيضاً لكن في رواية أخرى.

(٢) رواه ابن إسحاق بسند صحيح ومن طريقه الإمام أحمد ٥-٤٣١: حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة ابن صعير. والزهري ثقة وشيخه صحابي والسند مر معنا من قبل.

(٣) سورة الأنفال: الآية ١٩.

وقف أبو جهل أمام عتبة (فقال: أنت تقول ذلك! والله لو غيرك يقول لأعضضته، قد مـــلأت رئتك جوفك رعباً)[1]، فغضب عتبة من تلـــك الكلمات الجارحة، ونجح أبو جهـــل في إثارته، فأخذته العزة بالإثم، فالتفـــت إلى أبي جهل وقد احتقن من الغضب فقال له شيئاً يمرغ رجولته وزعامته.. قال عتبة لأبي جهل: (إياي تعني يا مصفر أسته. ســـتعلم اليوم أينا الجبان)[2] (ستعلم من الجبان المفسد لقومه، أما والله إني لأرى قوماً يضربونكم ضرباً، أما ترون؟ كأن رؤوسهم الأفاعي، وكأن وجوههم السيوف)[3].

تجمد الدم في عروق أمية، وأدرك أبو جهل أن حمزة في الطريق، وتهاوت معنويات الوثنيين، لكن عتبة أصر على الخروج ليغسل عار الجبن الذي سكبه عليه أبو جهل، ثم صاح بعد أن لف قطعة قماش على رأســـه: يا شـــيبة بن ربيعة.. يا وليد بن عتبة، لقد (دعا أخاه وابنه فخرج يمشـــي بينهما)[4] (فقالـــوا: من يبارز؟ فخرج فتية من الأنصار مشببة)[5] (ثلاثة نفر: عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء، ورجل آخر يقال له عبد الله بن رواحة. فقال: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار. فقالوا: ما لنا بكم حاجة.

ثم نـــادى مناديهم: يا محمد أَخْرِجْ إلينا أكفاءنا من قومنا)[6] و(قال عتبة: لا نريد هؤلاء، ولكن نبارز من بني عمنا من بني عبد المطلب. فقال رسول الله ﷺ:

(قم يا حمزة.. وقم يا علي.. وقم يا عبيدة)[7]

ثلاثة من بني عبد المطلب كأن وجوههم السيوف.. ثلاثة أقبلوا كأنهم الموت، فكان عتبة الضحية لحمزة هذا اليوم، فهوت حكمته وشـــجاعته، وشـــركه وعناده على أرض

---

(١) حديث صحيح مر معنا وهو جزء من حديث الإمام أحمد ١ - ١١٧.

(٢) هو جزء من الحديث الصحيح السابق ١ - ١١٧.

(٣) سنده صحيح. رواه البزار زوائد ٢-٣١٣. يزيد بن هارون أنبأنا جرير بن حازم عن عكرمة عن ابن عباس. جرير ثقة إذا روى عن غير قتادة، ويزيد ثقة وتلميذه شيخ البزار إبراهيم بن سعيد الجوهري ثقة التقريب ٦٠٦ و٨٩ وللحديث شواهد.

(٤) جزء من حديث البزار السابق وهو صحيح زوائد ٢-٣١٣.

(٥) جزء من حديث أحمد الصحيح وقد مر معنا ١ - ١١٧.

(٦) جزء من حديث ابن إسحاق وهو حسن بحديث أحمد السابق.

(٧) جزء من حديث أحمد الصحيح وقد مر معنا ١ - ١١٧.

بدر، وهوى أخوه شيبة جثة هامدة تحت قدمي علي. لم يستغرقا وقتاً طويلاً أمام هذين الفارسين من بني عبد المطلب، لكن ماذا حدث لعبيدة بن الحارث رضي الله عنه.

عليٌّ يقص علينا ما حدث فيقول: (أقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلت إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان، فأثخن كل واحدٍ منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد فقتلناه، واحتملنا عبيدة)[1]

ابتهج ﷺ بفرسانه، وفرح بانتصارهم، وتحمس المؤمنون جميعاً لعناق الموت، فرائحة الشهادة تعطر أجواء بدر.. تأجج حماسهم، وأيقنوا كما أيقن نبيهم ﷺ بالنصر، فصاح بأصحابه: (قوموا إلى جنة عرضها السموات الأرض)[2].

سمع أحد الصحابة -وهو الذي كان يحمل تمراً في جيبه- سمع ذكر الجنة فطار قلبه، وتوجه نحو رسول الله ﷺ كالفرح، ولما وقف أمامه قال: (يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال ﷺ: نعم.

قال: بخ.. بخ. فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قول بخ.. بخ؟ قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال ﷺ: فإنك من أهلها، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن)[3].

ما هذا الرجل، ومن هو..؟ يبشره ﷺ بالجنة فيأكل تمراً..!! سنعرف بعد قليل، فلنعد إلى رسول الله ﷺ حيث لا تمر في كفيه، لكن كفه كانت مليئة بشيء غير التمر.. شيء لا يؤكل. فما هذا الشيء وماذا يريد أن يفعل به؟

لقد (أمر رسول الله ﷺ فأخذ كفاً من الحصى بيده، ثم خرج فاستقبل القوم، فقال:

شاهت الوجوه

ثم نفحهم بها، ثم قال لأصحابه: احملوا)[4] فانطلق الصحابة كالسهام.. كالموت، ونظر صاحب التمرات إلى تمراته، ثم قال: (لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها

---

(١) سنده صحيح. رواه أبو داود ٢-٥٩ وغيره بسند إسرائيل عن أبي إسحاق... السابق.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ٣- ١٥٠٩.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ٣-١٥٠٩.

(٤) سنده قوي مر معنا رواه الأموي (ابن كثير ٢/٤٣٤) حدثنا أبي حدثنا ابن إسحاق حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير. الزهري ثقة وشيخه صحابي والأموي وولداه ثقتان.

لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل)[1] قتل شـهيداً رضي الله عنه وأرضاه.. هذا الشهيد أنصاريٌ يدعى: عمير بن الحمام.

أما حمزة فقد شـق صفوف الوثنيين بسيفه.. يتسـاقطون أمامه واحداً واحداً. أحد الجبناء: أمية بن خلف كان ينظر إليه وينتفض، وينتفض السيف في يده، وتنتفض الريشـة التي زين بها حمزة صدره.. أميـة بن خلف كان يرتعد خوفاً ويقول لمن حوله: (ذاك الـذي فعل بنـا الأفاعيل) وهو لم يحدد من ذلك الشـخص بعد.. لم يعرف أنه حمزة بعد، وكان أحد ضحايا حمزة رجل من مشاهير قريش اسمه: (طعيمة بن عدي) وهو أخو الرجل الشهم (المطعم بن عدي).

ومن مـكان آخر انطلق عبد الرحمـن بن عوف، وانطلق الشـابان كقذيفتين من حوله.. يتسـابقان نحو رأس أبي جهل، لكن كيف والمشـركون كالشـجر الملتف حوله.. يحمونه من سـيوف المهاجرين والأنصار؟ أي سيف سيشق طريقاً نحو أبي جهل..؟ أي سيف سيجز ذلك الشجر الوثني الملتف حول أبي جهل..؟

الذين صنعـوا الأحداث يتحدثون. عبد الرحمن بن عوف يقول للغلامين وسـط الموت والسـيوف: (نظرت إلى أبي جهل وهو يجـول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكم الذي تسألان عنه [فأشـرت لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين] فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى النبي ﷺ فأخبراه فقال: أيكما قتله؟

قال كل منهما: أنا قتلته. قال ﷺ: هل مسحتما سيفيكما؟ قالا: لا.

فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال: كلاهما قتله. وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والآخر معاذ بن عفراء)[2]

هذا ما حـدث باختصار، أما التفاصيل فعند من خاض سـيفه في تفاصيل أبي جهل.. التفاصيل عند معاذ بن عمرو بن الجموح، فبعد أن أشار عبد الرحمن بن عوف بيده إلى أبي جهل قال معاذ: (سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحرجة[3] وهم يقولون:

---

(١) هو باقي حديث مسلم السابق.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ٣-١٣٧٣ وما بين المعقوفين عند البخاري.

(٣) الشجر الملتف.

أبو الحكم لا يخلص إليه، فلما سمعتها جعلته من شأني، فصمدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربةً أطنت[1] قدمه بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنـــواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها، وضربني ابنه عكرمة على عاتقـــي فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضنـــي[2] القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأســـحبها من خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليهـــا حتى طرحتها، ثم مـــر بأبي جهل وهو عقير معوذ بن عفراء، فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق)[3] فتركه يشقى بآخر أنفاسه.. تدوسه الأقدام وتدوس زعامته، ويكسوه التـــراب الذي طالما نثره في وجوه الضعفاء والمســـاكين. هوى الطاغية الشـــرس الذي قضى أكثر من عشر سنين في محاربة الله ورسوله ﷺ.. قضاها في اضطهاد الفقراء، وقتل العجائز والمسنين من المؤمنين.. هوى هذا الكافر على يد شابين صغيرين اقتحما ثأراً لله ولرسوله وللمؤمنين، وخيم الموت على أبي جهل، والتهمت الصحراء ساقه.

خيمـــة من الموت ضربها الشـــابان الأنصاريـــان عليه، فلم يبق منه ســـوى عينين زائغتين.. تضعفان كلما سقط طاغوت آخر...

ها هو الطاغوت الآخر: عقبة بن أبي معيط يهوي إلى الأرض.. سقط سيفه، وسقط شـــركه، لكنه لم يمت ما زال حياً.. إنه يرسف في قيوده، وأحد فرسان الإسلام يقتاده كذلٍ وديع.. يمر به على جثث رفاقه في اضطهاد محمد عليه السلام فيرتجف.

وهنا طاغوت ثالث يرتطم بالأرض.. يرتج عند ارتطامه.. إنه أمية بن خلف، وشحمه الذي يلف جسداً يتموج من الرعب، وبالقرب منه يسقط علي ويرتجف من الخوف.

أجل عليٌّ خائف جداً فســـيفه ليس بيده، وهو يخشـــى طعنة من هنا أو هناك، أو أن تدوسه الأقدام والحوافر، فما الذي أصاب علياً؟ ومن الذي أسقطه وكيف يرتجف من الخوف؟

---

(١) أطارت.

(٢) أي حال بينيه وبينه.

(٣) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق والبيهقي (٨٤/٣) حدثني ثور بن يزيد عن عكرمة عن ابن عباس. عكرمة تابعي ثقة وثور بن يزيد الحمصي ثقة ثبت. التقريب ١٣٥.

علي خائف من الموت

أما كيف.. فلا بد أن أحد فرسان الإسلام قد أسقطه عن ظهر دابته، وأما لماذا.. لماذا أسقط ذلك الفارس علياً عن ظهر دابته. فالسبب بسيط.. لقد أسقطه، لأنه علي بن أمية بن خلف وليس علي بن أبي طالب، فابن أبي طالب يصول ويجول كالأسد بين عجول الشرك.. يلتقي بمن شاء، ويُسقط ما شاء منهم.. أما علي بن أمية فهو كالذبيحة قرب أبيه الجبان.. قرب أبيه الذي شاهد الموت عدة مرات. لم ينفعه أبو جهل، ولا هبل، ولا بعيره الذي اشتراه بأغلى الأثمان. فأبو جهل يتلبط في دمائه، وهبل حجر تركه في مكة، وبعيره وبعير ابنه بين غنائم المؤمنين، والموت قادم.. قادم يا أمية..

لكن أمية -فجأة- يشعر أن الحياة قادمة.. إنه يرى من خلال الموت فرجة إلى الحياة.. يحملها أحد المهاجرين.. يحملها عبد الرحمن بن عوف وهو شاهر سيفه يجندل به جنود الشرك، لكن أي أمل يحمله عبد الرحمن وسيفه يقطر دماً؟!

يبدو أن أمية بن خلف يحمل سراً، فلقد تطلق وجهه واستبشر عندما رأى عبد الرحمن بن عوف، ويبدو أن ابن عوف يحمل في ذاكرته المزيد عن تفاصيل ما حدث في بدر.

دعونا نستمع إلى عبد الرحمن بن عوف وهو يحكي سر أمية، وآخر آمال أمية، فهو إن لم ينج الآن على يد صديقه ابن عوف فسوف ينتن على أرض بدر.

قصة أمية وعبد الرحمن بن عوف

كان أمية وعبد الرحمن صديقين في الجاهلية، وكان بينهما تعامل تجاري بعد الإسلام، بل وبعد الهجرة.. هذه العلاقة تخللتها قصة مثيرة، بدأت في مكة قبل الإسلام فمتى ستنتهي..؟

يحدثنا عن بدايتها وعن نهايتها عبد الرحمن بن عوف فيقول: (كان أمية بن خلف لي صديقاً بمكة، وكان اسمي عبد عمرو، فتسميت حين أسلمت: عبد الرحمن، فكان

يلقاني ونحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو، أرغبت عن اسم سماك أبوك؟ فأقول: نعم هداني الله للإسلام، فتسميت عبد الرحمن. قال: إني لا أعرف الرحمن)[1].

ومضت الأيام والأحداث بالاثنين.. بقي أمية في مكة على شركه وأصنامه، وهاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة، ومارس التجارة بعد أن دلوه على سوق المدينة، فصار أحد رجال الأعمال والتجار الناجحين. ويمضي ابن عوف متحدثاً عن قصته مع أمية وهو في المدينة فيقول: (كاتبت أمية بن خلف كتاباً: بأن يحفظني في صاغيتي بمكة، وأحفظه في صاغيته بالمدينة)[2] (كان بيني وبين أمية بن خلف كتابٌ، بأن يحفظني في ضياعي بمكة، وأحفظه في ضياعه بالمدينة، فلما ذكرت: الرحمن، قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته: عبد عمرو.

فلما كان يوم بدر)[3] (مررت به وهو واقف مع ابنه علي، وهو آخذ بيده، ومعي أدراع لي قد استلبتها فأنا أحملها، فلما رآني قال: عبد عمرو. فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم، قال: هل لك في، فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع التي معك؟ قلت: نعم، ها الله.

فطرحت الأدراع من يدي وأخذت بيده وبيد ابنه وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن، ثم خرجت أمشي بينهما)[4](خرجت به إلى شعب لأحرزه حتى يأمن الناس)[5]، وتوجه الثلاثة إلى ذلك الشعب، ثم توجهوا (إلى جبل)[6]، فارتاحت نفس أمية بن خلف.. يا لها من أيام عصيبة تلك التي كانت تحمل في دقائقها الموت والحياة معاً لأمية.

---

(١) حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ٣-٩١: حدثني يحيى بن عباد عن أبيه وحدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن قالا: وهناك انقطاع بين صالح وجده، لكن عباد تابعي كبير والحديث حسن بما بعده وحديث صالح موصول عند البخاري وهو التالي.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٢٣٠١) والصاغية: الحاشية والأتباع.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ له (٣-٩٠).

(٤) حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣-٩١): حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير عن أبيه وحدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قالا: وفي الطريق الثانية انقطاع بين صالح وجده لكن عباد بن عبد الله ابن الزبير تابعي كبير والحديث بعد هذا حسن بما بعده وحديث صالح موصول عند البخاري وهو ما بعده.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ له (٣-٩٠).

(٦) جزء من حديث البخاري (٢٣٠١).

اطمأن أمية فتحدث عن اللبن الذي سيشـــربه ابن عوف وأصحابه من نياق أمية، التي ســـيفتدي نفسه وابنه بها، واسترخت أعصابه، فاسترسل في الحديث وقال لعبد الرحمن بن عوف وهو يمشـــي (بينه وبين ابنه آخذاً بأيديهما: يا عبد الإله: من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره؟

قلت: حمزة. قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل)[1]

وواصلوا المشـــي والمسير، وفجأة دوت صرخة مرعبة من بعيد.. اتسعت لها عيون أميـــة وابنـــه.. صرخة قلبت أرض بدرٍ على رأس أمية مـــن جديد.. صرخة من أعماق مضطهـــد لا تزال جراحه تلتهب. يقول عبـــد الرحمن بن عوف: (فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي -وكان هو الذي يعذب بلالاً بمكة على الإســـلام- فلما رآه قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، قلت: أي بلال، أسيري.

قال: لا نجوت إن نجا. ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلـــف لا نجوت إن نجا)[2] (فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا أمية بن خلف.

فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشـــيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم، فقتلوه، ثم أتوا حتى تبعونا، وكان رجلاً ثقيلاً، فلما أدركونا قلت له: أبرك.

فبرك، فألقيت عليه نفســـي لأمنعه، فتخللوه بالسيوف من تحتي)[3] (فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة[4]، فأنا أذب عنه، فأخلف رجل بالسيف فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط، قلت: انج بنفسك ولا نجاء، فوالله ما أغني عنك شيئاً، فهبروهما بأسيافهما حتى فرغوا منهما)[5]..

---

(١) ســـنده صحيح رواه ابن إســـحاق ومن طريقه البزار (٣-٢٢٧)وغيره: حدثني عبد الواحد بن أبي عون عن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف. إبراهيم له رؤية وابنه تابعي ثقة وشيخ ابن إسحاق ثقة وجرح ابن حبان لا يضره.

(٢) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق وهو الحديث السابق.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٢٣٠١).

(٤) التفوا حولنا وكأنهم داخل بئر صلبة لا تحتاج إلى طي.

(٥) حديث صحيح. جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(قتلوه وأصاب أحدهم رجلي بسيفه)[1]..

يتذكر عبد الرحمن رضي الله عنه ذلك مبتسماً ويقول: (يرحم الله بلالاً، فجعني بأدراعي وبأسيري)[2].

وهكـذا انتهت قصة أمية الطويلة، كما تنتهي قصص كثير من أمثاله الذين قضوا حياتهم في التعذيب، والتنكيل بمن يقع بين أيديهم من المؤمنين والضعفاء والمساكين.. انتهت حياته على يد من كان يتفنن في تعذيبه، ويسلقه تحت شمس مكة المحرقة. لقد (اشترى أبو بكر بلالاً، وهو مدفون بالحجارة)[3] الحامية في حرارة الصيف.. دفنه أمية، فهل سيدفن أمية بالحجارة؟

لم تنته المعركة بعد، والساحة حبلى بالمشاهد المثيرة.. المثيرة، فهذا سعد بن أبي وقاص، وقد سقط أخوه الصغير عمير شهيداً.. يقاتل بضراوة، وكأنه يقاتل عن اثنين.. كأنه يقاتل عن أخيه الصغير. يشاهده عبد الله ابن مسعود فيتعجب من شجاعته ويقول: (كان سعد يقاتل مع رسول الله ﷺ يوم بدر قتال الفارس والراجل)[4]

وفي مكان آخر كان الزبير بن العوام فارساً يقتحم قلعة من الحديد، فتتهاوى بين يديه.

يقول رضي الله عنه: (لقيت يوم بدر عبيد بن سعيد بن العاص، وهو مدجج لا يرى منه إلا عيناه، وهو يكنى أبا ذات الكرش، فقال: أنا أبو ذات الكرش. فحملت عليه بالعترة فطعنته في عينه فمات)[5].

وسقط مع من سقط من الكفار، الذين ملأت جثثهم أرض بدر، ورأى المشركون ما يحدث لقادتهم وأبطالهم، فجمعوا شظايا عزم لديهم، فشدوا على المسلمين في محاولة يائسة.. محاولة كالانتحار، وهي في حركتها تشبه كتلة من اللهب تهوي على

---

(١) حديث صحيح. جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٢) حديث صحيح. جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٣) حديث صحيح مر معنا في المجلد الأول.

(٤) سنده قوي رواه البزار ٢-٣١٥ حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود. وهناك انقطاع بين إبراهيم وابن مسعود، ورواه متصلاً عن إبراهيم بن يوسف حدثنا أبو معاوية. فجعل علقمة بين إبراهيم وابن مسعود، وإبراهيم في التقريب صدوق به لين والصواب أنه: ثقة فجرح النسائي غير مفسر التهذيب ١-١٨٥.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٩٨).

الأرض، فتتطفئ لكنها تؤذي من يتصدى لها. ومع ذلك كان أشجع الناس يتقدم كالموج يطفئها.. كالموت يخمدها، وخلفه كان سعد الذي يقاتل كرجلين، والزبير الذي يهزم الحديد، وعلي بن أبي طالب بشجاعته المعروفة، وعمه حمزة الذي فعل بهم الأفاعيل، وعمر بن الخطاب الذي تهابه كل قريش، وأبو بكر الصديق درع رسول الله ﷺ...

هؤلاء الذين صنعوا الأحداث والتاريخ.. هؤلاء وغيرهم قاتلوا في ساعة من ساعات بدر خلف ذلك الشجاع فمن هو:

أشجع رجلٍ في بدر؟

إنه رسول الله ﷺ، وأحد الذين كانوا يلوذون بشجاعة رسول الله ﷺ.. أحد الذين كانوا يلوذون بسيف رسول الله ﷺ يحدثنا بنفسه فيقول: (لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذٍ بأساً)[1] و (لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله ﷺ، وكان أشد الناس بأساً)[2]

وأمام هذا البأس تساقط المشركون من اليأس، وتفتت آخر حلم وثني على أرض بدر، وعلى سماء بدر أيضاً؛ فجيش محمد ﷺ ليس على الأرض فقط، بل وفي السماء له جيش.

أحد الذين كانوا يقاتلون المؤمنين.. أحد الذين أصابهم اليأس والإحباط.. رأى بين السماء والأرض شيئاً كالبساط.. شيئاً قادماً لمحمدٍ، ولأصحاب محمد ﷺ. فماذا رأى جبير بن مطعم، وما أثره على قومه.

يقول جبير: (رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود، أقبل من السماء مثل النمل الأسود، فلم أشك أنها الملائكة، فلم يكن إلا هزيمة القوم)[3] الكافرين الذين تطايروا من جديد كالشظايا.. هرباً من الحتف القاسي الذي يمتطي

---

(١) حديث صحيح. رواه ابن أبي شيبة (٣٥٤/٧) وانظر ما بعده.

(٢) سنده صحيح. رواه أحمد ١-١٢٦ والبيهقي ٣-٦٩ واللفظ. وسنده وسند ما قبله هو: إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي وقد مر معنا كثيراً.

(٣) سنده قوي. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٦١/٣): حدثني أبي عن جبير بن مطعم. والد ابن إسحاق ثقة روى عن معاوية ومعاوية توفي بعد جبير رضي الله عنهما.

نواضح يثرب بعد أن أطلقه ﷺ.. أطلق شباب الإسلام حماساً يفتك بأوصال الوثنية.. حماساً أوقده ﷺ عندما قال: (من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا، فسارع في ذلك شبان الرجال وبقي الشيوخ تحت الرايات)[1]

وبين بريق الانتصار، وبرق التسابق نحو رقاب الطغاة كان هناك من يسابق الشباب نحو تلك الرقاب. هذا أحد شباب الإسلام، واسمه الحارث ويكنونه بأبي واقد الليثي.. يشتد مسرعاً نحو أحد الطغاة فيشاهد العجب.. العجب.

يقول رضي الله عنه: (إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه، فوقع رأسه قبل أن يصل سيفي، فعرفت أن غيري قد قتله)[2]

كان أحد الملائكة لا شك.. الملائكة التي تحز الرقاب، وتلطم الأنوف والوجوه المشركة؛ فبين السماء والأرض كان هناك صراخ.. كان هناك حيزوم. ولا أدري ما هذا المخلوق الذي تردد اسمه في الفضاء؟ هل هو جواد ذو أجنحة، أم أن حيزوماً ملك من الملائكة؟ لكنه كان مسرعاً لا شك.. يسابق أحد الفرسان نحو أحد المشركين.. فـ (بينما رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. إذ نظر إلى المشرك أمامه، فخر مستلقياً، فنظرنا إليه، فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة)[3] ومدد السماء لم يقتصر على حز الرقاب ولطم الأنوف والوجوه، وتمريغها في الذل.. مدد السماء كان يفعل شيئاً آخر.

عم رسول الله ﷺ (العباس بن عبد المطلب) كان قد خرج مع قريش فوقع في الأسر، وها هو الأنصاري الذي أسره يقتاده نحو رسول الله ﷺ، لكن العباس يصر على أن هذا الأنصاري القصير القامة لم يأسره، والأنصاري يصر على أنه أسره!

---

(١) حديث صحيح. وصححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٥٢٢/٢).

(٢) سنده حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ٣-٥٦ حدثني والدي إسحاق بن يسار حدثني رجال من بني مازن عن أبي واقد الليثي. شيوخ والده جمع وهو يروي عن الصحابة، فإن كانوا صحابة صح السند وإن كانوا من كبار التابعين فيقوي بعضهم بعضاً.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم والبيهقي واللفظ له ٣-٥٢.

obeikandl.com

لم يكذب الأنصاري، ولم يكذب العباس؟ والحقيقة عند رسول الله ﷺ، لقد (جاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيراً، فقال العباس: يا رسول الله، والله إن هذا ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهاً، على فرس أبلق ما أراه في القوم. فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله.

فقال ﷺ: اسكت فقد أيدك الله تعالى بملك كريم)[1]، لا بشيطان رجيم. لكن يا ترى أين الشيطان الرجيم من هذه الأحداث.. لا شك أنه بين صفوف المشركين يتلقى نصيبه من الهزيمة والذل. أخبرنا عن ذلك ربنا وهو يقول: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾[2]

لما تهاوت الأجساد من حوله، وشخبت الدماء منها خاف أن يلقى المصير الذي لقيته تلك الجثث ففر، وفر المشركون قبله.. تطايروا كالشظايا في الشعاب والجبال، وانقشعوا عن أرض بدر، فانقشع الغبار، وهدأت الأنفاس.. تأمل ﷺ ذلك المشهد، وتأمل فرسانه من حوله، فإذا الساحة صمت حزين ورهيب.. منظر لا يسر.. سبعون جثة من قريش بلا حراك.. سبعون جثة لأبناء العمومة والعشيرة.. بلا أرواح.

ما الذي أوصلهم إلى هذه المأساة؟ من وما الذي قادهم إلى هذه النهاية المخيفة.. إلى الهزيمة وإلى جهنم؟

أبو جهل قادهم، والشيطان أجج الشرك في نفوسهم. أما يكفيهم ثلاثة عشر عاماً من حديث رسول الله ﷺ.. من حب رسول الله ﷺ، ورحمته وحرصه عليهم؟!!

نهاية مخيفة تلك التي انتهى إليها أولئك السبعون.. لقد فر أصحابهم وتركوهم للشمس والغبار، وتركوا مثل هذا العدد بين القيود والحبال.. سبعون أسيراً يغشاهم الذل، وتجللهم الهزيمة.

---

(١) هو جزء من حديث أحمد ١-١١٧ المشهور عن علي وقد مر معنا.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٤٧، ٤٨.

ها هو الشـــرير: عقبة بن أبي معيط بين الأسرى، وها هو أبو يزيد واسمه سهيل بن عمرو أسير أيضاً، وها هم الصحابة يستجيبون لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، فيكتفون بأسر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وأسر ابن عمه عقيل بن أبي طالب، لأنهم خرجوا كارهين لقتال رســول الله ﷺ كما قال نبي الله ﷺ: «من اســتطعتم أن تأسروا من بني عبد المطلب فإنهم خرجوا كارهين»[1]

لكــن لماذا لــم ينه ﷺ عن قتل أمية بن خلف وقد خرج كارهاً أيضاً..؟ الســبب لا يحتاج إلى كثير من التفكير، فأمية بن خلف كان من أشرس الناس على الإسلام وأتباعه خاصة بلال بن رباح بعكس بني عبد المطلب، ثم إن أمية لم يكن كارهاً لقتال المسلمين.. إنه يتمنى ســحقهم وســحق نبيهم ﷺ، لكنه كان خائفاً على نفسه لأنه يدرك أن رسول اللــه ﷺ لم، ولا، ولن يكذب. وقد توعــده بالموت وهو يدرك خطورة وعيده ﷺ. لذلك اشترى تلك الراحلة ليهرب عندما يلوح الخطر، لكن الذي لاح لأميه لم يكن الخطر.. إنه شيء أكثر خطورة.. إنه بلال وقد (كان هو الذي يعذب بلالاً في مكة على الإسلام)[2]

ثم إن بني عبد المطلب دافعوا عن رســول الله ﷺ، وشــاركوه في المعاناة والسجن في الشّعب.. لم يشذ عن هؤلاء الكرام إلا شرير يُسمى (أبو لهب)، وهو لم يحضر إلى أرض المعركــة، ربما كان مريضاً، وقد أســر بالإضافة إلــى العباس وعقيل زوج حبيبة رســول الله ﷺ.. زوج ابنته زينب، التي كانت كارهة لخروج زوجها، وخائفة على دينها ونبيها وأبيها ﷺ، وقد كان من السهل أسر هؤلاء الثلاثة، فهم لا يشعرون في أعماقهم بأي دافع لهذه المعركة سوى عنجهية أبي جهل وغطرسته. أبو جهل!!

أين أبو جهل يا ترى؟ إنه ليس بين القتلى ولا بين الأسرى والحبال؟

---

(١) رواه أحمد (٨٩/١) بســند حســن من أجل أبي ســعيد شــيخه وهو حســن الحديث من رجال البخاري (التقريــب ٤٨٧/١) قال الحافظ: صدوق ربما أخطأ، ولعل الصــواب أنه ثقة ربما أخطأ. انظر التهذيب وقد قال أبو سعيد حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي... وهذا السند صحيح وقد مر معنا.

(٢) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن قتل أمية بن خلف.

أين أبو جهل

ذلك المجرم، الذي رفض الإسلام حسداً لأن النبوة لم تكن في بيته. أين الطاغوت الـذي أخرج قريشـاً وهي كارهة لترقص حوله وهو يشـرب الخمـر..؟ إنه ليس بين القتلى، ولا بين الأسرى؟

لذلك (أمر رسـول الله ﷺ أن يلتمس في القتلـى)[1] وقال لأصحابه: (من ينظر مـا صنع أبو جهل)[2] (من يعلم ما فعل أبو جهل)[3] فتقدم رجل نحيل الجسـم.. دقيق السـاقين.. كان يرعى الغنم في مكة، وكان أبو جهل قد اسـتضعفه ذات يوم في مكة فـآذاه. تقدم هذا الرجل النحيل الصالح وقال لرسـول الله ﷺ: (أنـا يا نبي الله)[4] فانطلقت تلك السـاقان تنفيذاً لإرادة رسـول الله ﷺ، وبعد قليل هدأتا وتهادتا نحو جريح ينزف.. قد طارت سـاقه، وطار صوابه. حدق به ابن مسعود، فإذا هو أبو جهل (فوجـده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل؟ قال: وهل فوق رجل قتلتموه أو قتله قومه)[5] فقال ابن مسعود: (قد أخزاك الله. فقال: هل أعمد مـن رجل قتلتموه)[6] أي حقد ينضح من جثـة هذا الطاغية، وأي روح خبيثة تلك التي بين جنبيه.

لقد كان أبو جهل جثّة.. كتلةً متورمة من العناد، فهل سـيتركه ابن مسـعود ليخبر رسول الله ﷺ.. أم ماذا؟

ماذا فعل ابن مسعود بأبي جهل

قـال رضي الله عنه: (أدركـت أبا جهل يوم بدرٍ صريعاً فقلـت: أي عدو الله قد أخزاك الله. قال: وبم أخزاني من رجل قتلتموه؟!

---

(١) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن انقضاض معاذ بن عمرو بن الجموح على أبي جهل.
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٦ - ٨٧).
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٦ - ٨٧).
(٤) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٦).
(٥) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٦).
(٦) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٧).

ومعي سيف لي، فجعلت أضربه ولا يحيك فيه شيء، ومعه سيف له جيد، فضربت يده، فوقع السيف من يده، فأخذته، ثم كشفت المغفر عن رأسه فضربت عنقه، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته.

فقال: الله الذي لا إله إلا هو؟ قلت: الله الذي لا إله إلا هو -حتى حلفني ثلاثاً- [قال: انطلق فاستثبت، فانطلقت فأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك فأخبرته].

فقال رسول الله ﷺ: فانطلق فأرني. فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه ﷺ قال: هذا فرعون هذه الأمة)[1] رأسه هنا، ورجله هناك، وباقيه في مكان آخر.

أبو جهل الذي جمع الشرك كله، ورفض الحكمة كلها. أبو جهل الذي وصف رسول الله ﷺ وأصحابه بأنهم مجرد لقمة.. مجرد أكلة جزور.. أبو جهل الذي اتهم عقلاء قومه بالجبن.. يسقط على أرض بدر دون أن يمس أحداً من المؤمنين بأذى.. دون أن يشفي غليله ولو بضربة واحدة، أما سيف أبي جهل الثمين، فلم تصدر منه سوى ضربة واحدة متجهة نحو رقبة صاحبها.. نحو أبي جهل. هلاك أبي جهل مروع، والتاريخ يكتب للطغاة بحبر المضطهدين. لكنهم لا يقرأون، ولا يفيد من التاريخ سوى العقلاء. هلك أبو جهل بسيفه، والذين مزقوه شباب صغار انتقاما ونصرة لحبيبهم عليه السلام، والذي أجهز عليه وحز رأسه أحد الضعفاء، الذين أخافهم كثيراً، وأذلهم كثيراً في شوارع مكة وأزقتها، بل وفي بيت الله الحرام.

ترى هل يتذكر ابن مسعود وهو يجهز على أبي جهل ذلك اليوم الذي كان فيه خائفاً بجوار الكعبة الآمنة.. ينظر إلى حبيبه ويتمزق حرقة، لكنه لا يستطيع فعل شيء؟ فـ (بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحابٌ له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور (بني فلان) فيأخذه فيضعه على كتِفَي محمد إذا سجد؟

---

(١) سنده قوي. رواه الطبراني ٩-٨٣ حدثنا الحسين بن إسحاق التستري حدثنا أبو المعافى محمد بن وهب بن أبي كريمة حدثنا محمد بن أبي تملة عن أبي عبد الرحيم عن زيد ابن أبي أنيسة عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود.. ابن أبي تملة لم أجد له من ترجمة والصواب محمد بن سلمة الحراني ابن أخت عبد الرحيم الحراني من تلاميذ خاله ومن شيوخ ابن وهب. التهذيب ٩-٥٠٦ و٩-١٩٣-١٩٤ وهؤلاء ثقات كلهم، وابن ميمون مخضرم ثقة، التقريب ٤٢٧ وشيخ الطبراني حافظ جليل. أعلام النبلاء ١٤-٥٧ وللحديث شواهد منها الطبراني ٩-٨١-٨٢-٨٣ ومنها حديث سنده قوي عند البزار.

فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل إلى بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جويرية، فطرحت عنه ثم أقبلت عليهم تسبهم.

فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته، ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا، دعا ثلاثاً. وإذا سأل، سأل ثلاثاً، ثم قال النبي ﷺ: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش.

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، ثم قال: اللهم عليك بأبي جهل ابن هشام، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط»[1].

واليوم سقط هؤلاء كلهم.. كلهم إلا عقبة بن أبي معيط، فأين هو..؟ هذا المجرم لا يزال حياً.. إنه بين الأسرى، ولا أدري ما سيفعل به رسول الله ﷺ، لكنه يتعذب الآن بمنظر شركائه في الإجرام وقد بدأوا ينتنون وينتن شركهم، وقد تحققت دعوة رسول الله ﷺ عندما: (استقبل رسول الله ﷺ البيت، فدعا على نفر من قريش فيهم أبو جهل، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط.

قال ابن مسعود: فأقسم بالله لقد رأيتهم صرعى على بدر، قد غيرتهم الشمس، وكان يوماً حاراً)[2] وفي اليوم الحار تنتن الجثث سريعاً. إذاً فلا بد من دفن تلك الجثث، ولو كانت جثث كفار، هذه هي تعاليم الإسلام، والإسلام دين صحة ونظافة، ودين يحترم الإنسان لآدميته، ورسول الله ﷺ يقول لأمته: (أسرعوا بالجنازة فإن تك صالحة فخير تقدمونها عليه، وإن تكن غير ذلك فشر تضعونه على رقابكم)[3] لذلك أمر ﷺ أن تقذف تلك الجنائز في بئر كان موجوداً على أرض بدر، فـ (نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين من صناديد قريش، فقذفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث)[4] بئر يعج برائحة الموت وعفن الشرك، و (لما أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في القليب، طرحوا فيه إلا ما كان من أمية بن خلف، فإنه انتفخ في درعه

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم الجهاد والزوائد له ، والبيهقي ٢-٢٨٠ واللفظ له.
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي ٢-٣٣٥.
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ١ - ٤٤٢ ومسلم ٢-٦٥١.
(٤) حديث صحيح. رواه البخاري ٤-١٤٦١.

فملأهـا، فذهبوا ليخرجوه فتزايـل لحمه، فأقروه، وألقوا عليه مـا غيبه من التراب والحجارة)[1]... هلك أمية ين خلف.. لم يحفر له قبر كبقية الناس، فقد تفسـخ لحمه فتركوه، ودفنوه بالحجارة بعد أن قتله بلال. يال انتقام الجبار لبلال المؤمن المسكين!

أيتذكر بلال وهو يرى عدوه مدفوناً بالحجارة.. أيتذكر تلك الأيام العصيبة، عندما كان أمية يدفنه بالحجارة في مثل هذه الأيام الحارة، وتحت هذه الشمس المحرقة؟ لقد كان بلال حتى آخر لحظات الرق مدفوناً بالحجارة.

يقول أحد الذين أدركوا تلك الأحداث: (اشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفون بالحجارة)[2] وها هو أمية: الطاغوت الذي دفن بلالاً.. هاهو يدفن بالحجارة أمام عيني بلال المسكين. سبحانك ما أعظمك.. إنها دعوة المضطهدين والمظلومين.

وقبل أن يتخلص النبي ﷺ من تلك الجثث تهادى إلى شـهداء الإسـلام.. شهداء بدر فكم كان عددهم:

ثمانية عشر شهيداً

دفنهـم النبي ﷺ، وتحدث عنهم ابن مسـعود رضي الله عنه بحديث كالماء البارد فقال: (إن الثمانية عشـر الذين قتلوا من أصحاب رسـول الله ﷺ يوم بدر، جعل الله أرواحهم في الجنة في طير خضر تسـرح في الجنة، فبينما هم كذلك إذ اطلع عليهم ربك اطلاعة، فقال: يا عبادي، ماذا تشتهون؟

قالـوا: يا ربنا ما فوق هذا شـيء. فيقـول: عبادي ماذا تشـتهون؟ فيقولون في الرابعـة: ترد أرواحنا في أجسـادنا فنقتل كمـا قتلنا)[3] إنهم يبحثـون عن الموت من

---

(١) سـنده صحيح. رواه ابن إسـحاق (سـيرة ابن كثير ٢/٤٤٩) حدثني يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة قالت:... وهذا السند صحيح. يزيد بن رومان تابعي صغير ثقة، وهو أحد موالي آل الزبير (التقريب ٦٠١) وشيخه لا يسأل عنه.

(٢) حديث صحيح مر معنا في الجزء الأول.

(٣) سـنده صحيح. رواه الطبراني (١٠/٢٤٩): حدثنا سـليمان بن الحسن العطار أبو أيوب حدثنا محمد بن علي ابن الحسن بن شفيق، سمعت أبي: أخبرني الحسين بن واقد عن الأعمش عن شقيق أن ابن مسعود: شـقيق بن سـلمة أدرك الجاهلية والإسلام التهذيب ٤ - ٣١٧) وسمع منه التابعي الثقة: قال لي أبو وائل: يا سـليمان لو رأيتني ونحـن هراب من خالد بن الوليد. وقال الأعمش عن إبراهيم: عليك بشـقيق، فلا تضر عنعنة الأعمش، لا سـيما وهما كوفيان، وتلميذه الحسـن ثقة، وعلي بن الحسن وولده ثقتان، وشيخ الطبراني ثقة. سؤالات السهمي كما عزاه الشيخ عبد القدوس في مجمع البحرين ٦-١٤٧.

obeikandl.com

جديد.. يريدون فعل شيء يجعلهم يستحقون كل ما حولهم، ويستحقون ما هم فيه من الرفاهية والدهشة التي لا يمكن وصفها، وماذا يساوي ألم الموت أمام عوالم السعادة والابتهاج والخلود، ماذا يساوي الموت و(الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم مس القرصة)[1]؟

ماذا يساوي ألم الموت أمام تلك القصور الفاتنة، والشوارع الفسيحة الساحرة، والملابس الراقية الأنيقة، والأجساد الشابة الغضة الفاتنة التي سينعمون بها والتي لا تعرف المرض ولا الهرم، ولا الترهل ولا الشحوم ولا الشحوب ولا القبح. لن تهم الطعنات إن كانت كل طعنة بوابة للخلود الذي لا يعرف الموت، والغنى الذي لا يعرف الفقر، والأمن الذي لا يعرف الخوف.. إنها الجنة حيث لا عين رأت مثل جمالها، ولا أذن سمعت بروعة كروعتها، ولا خطر على بال بشر مستواها ومستوى البهجة داخلها.

دفن ﷺ شهداء بدر بثيابهم ودمائهم، وبشرهم وبشر أمثالهم فيما بعد فقال: (أنا شهيد على هؤلاء، لفوهم في دمائهم، فإنه ليس جريح يجرح في الله، إلا جاء وجرحه يوم القيامة يدمي، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك)[2] ويقول ﷺ: (للشهيد عند الله سبع خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويشفع في سبعين إنساناً من أهل بيته)[3].

هذا ما سيفرح به الشهداء من المهاجرين والأنصار، وما في الجنة أجمل وأبقى. أما ما سيلقاه قتلى قريش فشيء مخيف ومرعب.. بشرهم به ﷺ.. خاطبهم وهم أكوام محشورون في تلك البئر المنتن، ولكن بعد ثلاثة أيام من انقضاء المعركة، وقد

---

(١) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع (١-٦٩٦).

(٢) سنده حسن رواه البيهقي في الكبرى ٤-١١ وابن سعد ٣-١٣ عن خالد بن مخلد، حدثني عبد الرحمن بن عبد العزيز حدثني الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه، عبد الرحمن حسن الحديث من رجال مسلم وخالد صدوق وعند البخاري وغيره.

(٣) سنده صحيح. رواه أحمد ٤-١٣١ عن شيخيه قالا: حدثنا إسماعيل بن عياش عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن المقدام. إسماعيل عن شيخه حمصيان ثقتان التقريب ١٠٩ و١٢٠ وابن معدان تابعي ثقة، التقريب ١٩٠.

كانت سنته ﷺ إذا انتصر في معركة أن يقيم ثلاثة أيام[1] على أرض المعركة بعد انقضائها، ثم يعود إلى المدينة.. ربما كان ذلك لتأكيد الانتصار، والمحافظة عليه من أية محاولة -ربما- تقوم بها الفلول الخاسرة لتعويض خسارتها، وفي تلك الأيام الثلاثة كان النبي ﷺ مشغولاً بتركة هذا الانتصار.. مشغولاً بقضايا وهموم تحتاج إلى أكثر من التفكير، ومن هذه القضايا والهموم.

قضية الغنائم

فالغنائم بالنسبة للذين حضروا بدراً لا تعني رصيداً مادياً أبداً.. إنها أكبر من ذلك، والصحابة مهاجرون وأنصار أكبر من هذا التفكير، فالمهاجرون تركوا أموالهم لله، والأنصار شاطروا إخوانهم وأموالهم ودورهم، لكنها غنائم أول معركة مع رسول الله ﷺ، وأول معركة ضد كفار قريش الذين أخرجوا رسول الله ﷺ، وأول معركة في الإسلام، والمشاركة فيها والحصول على شيء من غنائمها له في النفوس أثر ينام ويصحو مع الإنسان، ويظله في كل مكان يسير ويخطو عليه.. أثر يتطهر معه أهل بدر من كل ذنوبهم. لست أبالغ فقد قال رسول الله ﷺ: (لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة)[2] ثم إن الصحابة بشر.. يصيبون ويخطئون، فيقوم ﷺ بتصحيح أخطائهم، لتصحح الأمة أخطاءها، وتأخذ أحكامها من هذه الأحداث، وليس هناك أخصب من المعارك للانفعال والتأثر والخطأ.

فماذا حدث من الصحابة ومارأي بعضهم حول الغنائم؟

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه وعنهم: (إن النبي ﷺ قال: من أتى مكان كذا وكذا، فله كذا وكذا. أو فعل كذا وكذا، فله كذا وكذا. فتسارع إليه الشبان، وبقي الشيوخ عند الرايات، فلما فتح الله عليهم جاءوا يطلبون ما جعل لهم النبي ﷺ، فقال لهم الأشياخ: لا تذهبوا به دوننا، فأنزل الله عليه هذه الآية: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾[3] والآية التي نزلت هي قوله سبحانه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ

---

(١) (كان ﷺ إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال) رواه البخاري وسيمر معنا.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٨٣).

(٣) سنده صحيح رواه ابن جرير ٦-١٧١-١٧٢ عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس. داود تابعي ثقة متقن التقريب ٢٠٠ وشيخه تابعي ثقة ثبت مر معنا كثيراً.

﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

ولكي تتضح الرؤية جيداً دعونا نمشي خلف هذا الشاب الذي يحمل بيديه سيفين.. سيفه وسيف رجل من المشركين. إنه يتوجه نحو رسول الله ﷺ.. يستأذنه، ويرجوه أن يمنحه هذا السيف؟ (فأتى به رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله نفلنيه. فقال ﷺ: ضعه. ثم قام فقال: يا رسول الله: نفلنيه. فقال ﷺ: ضعه.

ثم قام فقال: يا رسول الله نفلنيه، أُجعل كمن لا غَنَاء له؟

فقال النبي ﷺ: ضعه من حيث أخذته)[2].

هذا الشاب هو سعد بن أبي وقاص وهو يحدثنا بنفسه فيقول: (جئت إلى النبي ﷺ يوم بدر بسيف، فقلت: يا رسول الله، إن الله قد شفى صدري اليوم من العدو، فهب لي هذا السيف. فقال ﷺ: إن هذا السيف ليس لي ولا لك.

فذهبت وأنا أقول: يعطاه اليوم من لم يبل بلائي، فبينا أنا إذ جاءني الرسول فقال: أجب. فظننت أنه قد نزل فيَّ شيء من كلامي، فجئت، فقال لي النبي ﷺ: إنك سألتني هذا السيف وليس هو لي ولا لك، وإن الله قد جعله لي، فهو لك. ثم قرأ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾)[3] إذاً فالسيف ليس لرسول الله ﷺ ولا لسعد بن أبي وقاص وكذلك الغنائم، فلمن كانت الغنائم في الحروب التي خاضها الأنبياء من قبل؟ لقد كانت الغنائم تحرق.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١.

(٢) سنده قوي. رواه ابن جرير ١-١٧٣ من طرق عن: سماك بن حرب، سمعت مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه. سماك صدوق روايته قوية إلا عن عكرمة، وهذه ليست منها، بل عن التابعي الثقة مصعب بن سعد وهو من رجال الشيخين.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم والبيهقي واللفظ له (٦/٢٩١ من السنن).

شـــيء غريب، ولماذا تحـــرق؟ يقول أحد الصحابة: (لما كان يـــوم بدر تعجل الناس إلى الغنائم، فأصابوها فقال رســـول الله ﷺ: إن الغنيمة لا تحل لأحد ســـود الرؤوس غيركـــم، وكان النبي[1] ﷺ وأصحابـــه إذا غنموا الغنيمة جمعوهـــا، ونزلت نار فأكلتها فأنـــزل الله هذه الآية: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾[2].

نزلـــت هذه الآيات فترك المجاهدون اجتهاداتهم لوحي الســـماء، فليس مع الوحي الصريح اجتهاد، وســـلموا الأمر لله ولرســـوله ﷺ، وســـلمت الغنائم لرسول الله ﷺ، فوزعهـــا على المهاجرين والأنصار ففرحوا بها، كانـــت أول هدايا الله للنبي وأصحابه علـــى أرض معركة، وكانوا أول أمة تباح لها الغنائـــم، لكنهم تعلموا أيضاً أن المال العام (مال الدولة) محرم على أي فرد من أفراد الشـــعب حتى ولو كان مجاهداً، إلا إذا كان بصورة نظامية مستحقة.

فرح ســـعد بن أبي وقاص بسيفه، وبشـــيء آخر مع سيفه. أما علي بن أبي طالب فـــكان نصيبه من الإبل، حيث يقول رضي الله عنه: (كانت لي شـــارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان النبي ﷺ أعطاني مما أفاء الله عليه من الخمس يومئذ)[3].

إذاً فعلي رضي الله عنه حصل على بعيرين بعير من نصيبه من الغنائم، وبعير من الخمس، فما هو الخمس الذي تحدث عنه علي بن أبي طالب هنا..؟ الإجابة بسيطة. فقد أمر الله سبحانه بتقسيم غنائم الحرب إلى خمسة أجزاء:

أربعة أجزاء للمجاهدين المشاركين في المعركة.

---

(١) أي من الأنبياء السابقين. وهذا من كلام أبي هريرة وليس من كلام النبي عليه السلام.

(٢) سنده صحيح مشهور رواه الطيالسي ٢-١٩ وغيره عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة.، والحديث صححه الألباني في صحيح الترمذي ٣-٥٣.

(٣) رواه البخاري ٤-١٤٧٠.

obeikandl.com

أما الجزء الخامس فيقسم أيضاً إلى خمسة أجزاء:

١- جزء لله وللرسول ﷺ.

٢- جزء لقرابة الرسول ﷺ.

٣- جزء ليتامى المسلمين الذين فقدوا آباءهم.

٤- جزء للمساكين المحتاجين من المسلمين.

٥- جزء للمسافرين الذين فقدوا أموالهم، أو نفذت أموالهم وليس لديهم ما يسد حاجتهم للمواصلة، أو الرجوع إلى ديارهم.

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾[1] ويوم الفرقان هو يوم بدر.

انتهى المسلمون من قضية الغنائم وتقسيمها، وبقيت قضية أخرى لا تقل عنها.. إنها:

قضية الأسرى

أما الأسرى فقد نظر إليهم النبي ﷺ نظرة أسف، ثم نطق بالوفاء كله لأحد رجالات قريش الكرام، الذين كانوا مثالاً في احترام النفس، واحترام الآخرين.. رجل شهم كأبي طالب. إنه المطعم بن عدي، ذلك الرجل الذي حمى رسول الله ﷺ في مكة يوماً من الأيام. تذكر ﷺ موقف المطعم بن عدي فانطلقت مشاعر الوفاء منه لكل صاحب معروف ولو كان مشركاً، فباح بوفائه وقال: (لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتن لأطلقتهم له)[2] لكن المطعم بن عدي تحت الثرى، ولم ينزل على رسول الله ﷺ وحي في أمرهم حتى الآن، فكانت المشورة الملزمة عند عدم وجود نص.

توجه ﷺ نحو أبي بكر وعمر وعلي يستشيرهم: ماذا يفعل بهؤلاء الأسرى؟ فرسول الله ﷺ إذا لم ينزل عليه الوحي لا يستبد برأيه، ولا يفرضه على من حوله،

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤١.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٢٤).

وقد قال ﷺ في أول المعركة: (أشيروا علي أيها الناس) وها هو يتجه بالمشورة في آخر المعركة نحو أبي بكر وعمر وعلي، فكانت الإجابة:

رأياً لأبي بكر ورأياً لعمر

فبأيهما سيأخذ؟ يقول عمر رضي الله عنه: (لما أسروا الأسارى، يعني يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: أين أبو بكر وعمر وعلي؟)[1] فجاء أبو بكر وجاء عمر وجاء علي رضي الله عنهم، ولما وقفوا أمامه ﷺ قال لهم: (ما ترون في الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة، وأرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ فقال: لا والذي لا إله إلا هو، ما أرى الذي رأى أبو بكر يا نبي الله، ولكن أرى أن تمكننا منهم: فتمكن علياً من (عقيل) فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من (العباس) فيضرب عنقه، وتمكنني من (فلان) -نسيب لعمر- فأضرب عنقه. فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت.

قال عمر: فلما كان من الغد، جئت إلى رسول الله ﷺ، فإذا هو وأبو بكر قاعدان يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت.

فقال رسول الله ﷺ: أبكي للذي عرض لأصحابي من أخذهم الفداء، ولقد عُرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة -لشجرة قريبة من رسول الله ﷺ-.

فأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا ... ﴾[2])[3].

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم وابن جرير في التفسير ٦-٢٨٧ واللفظ له من طريق عكرمة بن عمار حدثنا أبو زميل، حدثني ابن عباس وسند ابن جرير صحيح.

(٢) سورة الأنفال الآية: ٦٧-٦٩.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم وابن جرير في التفسير بالسند السابق.

بكى ﷺ، وبكى صاحبه من خشية الله، وتلا على أصحابه عتاب الله له..لم يخفه عنهم، ولم يضمر هذه الآيات في نفسه، بل أعلنها للجميع. أعلنها لأنها وحي، وأعلنها لأنه مطالب بإعلانها، وأعلنها لأنه صادق، ولو لم يكن صادقاً لما كان نبياً.

كانت تلك الآيات تحمل كرامة لعمر، وتصويباً لرأيه، فهؤلاء الرجال خرجوا لحرب الله ورسوله. صحيح أن بعضهم كان كارهاً، وأن البعض الآخر قد استدرج واستفز من قبل أبي جهل، لكن ألا يستطيع هؤلاء وهؤلاء أن يقولوا: لا؟!

تألم ﷺ لما حدث، لكن الله رحيم بنبيه.. لم يتركه لآلامه ودموعه. بعث له جبريل مرة أخرى يحمل بشرى بالفداء والجنة.

ها هو (جبريل نزل على النبي ﷺ في أسارى بدر فقال: إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم أخذتم منهم الفداء، واستشهد قابل منكم سبعون. فنادى النبي ﷺ في أصحابه، فجاءوا، أو من جاء منهم، فقال ﷺ: هذا جبريل يخيركم بين أن تقدموهم فتقتلوهم، وبين أن تفادوهم واستشهد قابل منكم بعدتهم؟ فقالوا: بل نفاديهم فنتقوى به عليهم، ويدخل منا الجنة سبعون، ففادوهم)[1] أي يستشهد منا سبعون في السنة القادمة. وهكذا (فادى النبي ﷺ بأسارى بدر، فكان فداء كل واحد منهم أربعة آلاف)[2] أربعة آلاف درهم.

وبعد الأمر بأخذ الفداء استثنى عليه السلام منهم طاغوتاً:

إعدام طاغوت

فقبل أن يطلبوا من أسراهم الفداء أمر ﷺ بإخراج أحد المجرمين من بين الأسرى، واسم هذا المجرم: (عقبة بن أبي معيط).. أمر ﷺ بإخراج عقبة هذا، فهو لن يقبل

---

(١) سنده صحيح. ورواه ابن سعد (٢/٢٢) عن ابن سيرين عن عبيدة مرسلاً ورواه البزار ٣-١٧٦ والنسائي الكبرى ٥-٢٠٠ وغيرهم عن سفيان الثوري عن هشام ابن حسان، عن ابن سيرين عن عبيدة عن علي وهذا السند كالذهب: عبيدة مخضرم ثقة ثبت، وهشام ثقة وأثبت الناس عن شيخه يقول: حدثني أصدق من أدركته من البشر التهذيب ٩-٢١٥.

(٢) رواه عبد الرزاق (٥/٢٠٦) عن معمر بن قتادة قال: وأخبرني عثمان الجزري عن مقسم عن ابن عباس: وفي الأول إرسال قتادة لكن معمر رواه من طريق أخرى فيها ضعف من أجل عثمان. وللحديث شاهد سيمر معنا عند الحديث عن فداء مشرك يدعى (وداعة).

منه فداءً ولا مالاً، لأنه لا يقل شراسة وإجراماً عن أبي جهل. عقبة كان فرعوناً آخر لهذه الأمة.. إنه مجرم، حتى لقد عزم يوماً على قتل رسول الله ﷺ. ليس في الطريق، وليس في بيته، ولا في الصحراء، بل وهو آمن مع ربه في بيته الحرام، الذي يلقى فيه الرجل قاتل أبيه فلا يتعرض له. لكن عقبة كان كتلة من الحقد والكفر والإجرام.

سأل رجل أحد الصحابة: (حدثني بأشر شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ؟

قال: أقبل عقبة بن أبي معيط ورسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة، فلوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذه بمنكبيه فدفعه عن رسول الله ﷺ، ثم قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم)[1].

فشلت محاولة عقبة.. أفشلها أسد من أسود الإسلام.. أحبطها أبو بكر رضي الله عنه، فانسحب عقبة وهو يضمر شراً، فلما خرجت قريش إلى بدر أشراً وبطراً خرج عقبة معها، لينفس عن أحقاده وشروره، لعله يحظى برأس محمد وصاحبه أبي بكر معاً، لكنه فشل من جديد. وها هو علي بن أبي طالب يجتره من بين الأسرى، وهو يرتعد خوفاً من الموت، فيحاول أن يدفع الموت عنه بكلمة يستدر بها رحمةً.. أي رحمة؟ لكن رسول الله ﷺ يقتله بكلمة قبل أن يقول السيف كلمته.

حدث ذلك عندما (قام علي بن أبي طالب فقتله صبراً قال: من للصبية يا محمد؟ قال ﷺ: النار)[2].

عقبة يذكر الصبية، لكنه لا يذكر الله، ولا الإسلام، وكأن سبب هذه المعركة ثأر قديم، أو خلاف في وجهات النظر بين أفراد قبيلة واحدة. ومع ذلك فيمكن لعقبة أن ينجو من الموت، وأن ينجو من النار، لو أنه اختار الله ورسوله. لكنه وهو على شفير الموت يرفض ذلك. لو تشهد لنجا من سيف علي، لكنه يرفض أن يكون عبداً لله وحده، ويرضى بأن يكون عبداً لحجر مقذوف على ظهر الكعبة.. هو صنعه بيديه، بل حاول قتل رسول الله ﷺ من أجل ذلك الحجر، فكان لعقبة ما اختار من لهيب السيف ولهب

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي من الطريق نفسه (٢/٢٧٤).

(٢) هو آخر حديث عبد الرزاق السابق ٥-٢٠٦.

النار، وقذف عقبة مع أصحابه في تلك القليب النتنة المحشـــوة عفناً وكفراً وجحيماً.. قذف عقبة باختياره. أما رسول الله ﷺ فلم يكن يكره أن يسلم عقبة والأسرى جميعاً. لقد نفذ أمر ربه الـــذي يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ ﴾[1] ورسول الله ﷺ كان رحيماً فلم يكره أن يسلم عقبة ابن أبي معيط.. لم يكره أن ينجو من ســـيف علي، فدخول عقبة في دار الإيمان يكفل حمايته من الســـيف، ومن سيوف المؤمنين جميعاً.

ها هو أحد فرســـان بدر.. المقداد بن عمرو يبعث برسالة إلى العالم.. من أقصاه إلى أقصاه.. من خلال حوار متحضر جداً مع رسول الله ﷺ.

قال المقداد لنبيه ﷺ: (يا رســـول اللـــه، أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتتلنا، فضرب إحدى يدي بالســـيف فقطعها، ثم لاذ مني بشـــجرة فقال: أسلمت لله. أقتله يا رســـول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله ﷺ: لا تقتله. فقال: يا رسول الله إنه قطع إحدى يدي ثم قال ذلك بعدما قطعها؟!

فقال رسول الله ﷺ: لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال)[2].

هذا هو الإسلام، وهذا هو خطابه الحضاري لأتباعه والعالم: لا شأن لكم بالنوايا.. لا شـــأن لكم، ولا يعرف ما في القلوب إلا من خلقها. لا انتقام ولا مقابر جماعية ولا تشف ولا تشويه للجثث ولا جهاد دون انضباط.

وقد رفض عقبة هذا الخطاب الجميل، فغادر إلى الجحيم غير مأسوف عليه.

بقية الأسرى في نعيم

بقية الأســـرى لم يســـحبوا إلى قليب، ولم يُقتادوا إلى معسكرات تجويع وتعذيب، ولم يؤمروا بالقيام بأعمال شـــاقة. فمنذ أغمد الصحابة سيوفهم تحولت الساحة من

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٠.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠١٩).

أنهار دم إلى شـــلالات كرم وواحات سلام.. شرب فيها الأسرى وأكلوا وناموا أكثر من الصحابة، وأكثر من نبيهم عليه الصلاة والســـلام.. شيء لا يصدق! لأنه لم يحدث من قبل.. شيء لا يصدق. أيعقل أن يعامل المسلمون هؤلاء المشركين الذين حملوا السيوف، وطردوا الرسول ﷺ، واغتصبوا المال والدار.. أيعقل أن يعاملوا معاملة المسكين، والطفل اليتيـــم..؟! أجل، يعقـــل إذا كان القائد هو محمد ﷺ، وكان الجيش من الصحابة.. ها هم يقدمون طعاماً للأسرى أفضل من طعامهم، رغم جوعهم ورغبتهم الملحة فيه. ليس لأنهم أبناء العمومة والعشـــيرة، ولا لطمعهم بفدية أكثر، فإن من المشركين من لا يملك إلا سيفه. الســـبب ببساطة هو وعد نزل كالمطر من السماء، فأنبت في قلوب المؤمنين تلـــك الرياض، وتلـــك الرعاية، وذلك الفيض من العطاء.. وحي مـــن الله يقول: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ ﴾[1].

هذه هي معســـكرات الأسر في الإسلام مهما كان الأســـير مجرماً، أو مشركاً أو حتى ملحداً. هذا هو مفهوم الحبس في الإســـلام إن كان في الإســـلام حبس. أســـير مشرك خرج لسفك الدماء يخجل من كرم آسره، وآسر يستحي أن يقدم لأسيره طعاماً أقل من طعامه، أو مســـاوياً له. يكتفي الصحابة بالتمر والماء، ويقدمون الخبز واللحم -إن وجد- لأسراهم.

أخـــلاق زرعها ﷺ في أعماق أصحابه.. أخـــلاق تعادل درجاتٍ من الصلاة والصيام لا يطيقها الإنســـان.. بشـــرهم ﷺ بذلك عندما قال لهم: (إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار)[2] ومن الذي يصلي ليله كله دون توقف، ويصوم كل يوم ولا يفطر؟ قال لهم ﷺ: (إن أقربكم مني منزلاً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً في الدنيا)[3] (إن من أحبكم إلي أحسنكم أخلاقاً)[4] و(من كان سهلاً هيناً ليناً حرمه الله على النار)[5].

---

(١) سورة الإنسان: الآيات ٥-٩.
(٢) حديث صحيح. صحيح الجامع (١-٣٣٤).
(٣) حديث حسن. صحيح الجامع (١-٣٢٧).
(٤) حديث صحيح. صحيح الجامع (١-٤٣٨).
(٥) حديث صحيح. صحيح الجامع (٢-١١٠٥).

غـــرس ﷺ تلك الأخلاق عندما قال لهم: (أنا وكافل اليتيم له أو لغيره في الجنة، والساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله)[1] و(أنا زعيم ببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه)[2].

سحابة عطر كان محمد ﷺ وأصحابه، بعد أن كانوا قبل قليل عاصفة من السلاح والموت.. سحابةٌ شعر الأسرى تحتها بالارتياح.. شعروا بنسيم الإسلام البارد يغمرهم، ويلطـــف لفح الصحراء من حولهم، فانتشـــى الأنصار من جديد، وتوهج كرمهم وحبهم لرسول الله ﷺ بالإيثار من جديد.

يقول أحد أبنائهم: (إن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ قالوا: إيذن لنا فلنترك لابن أختنا العباس فداءه.

فقال: لا والله، لا تذرون منه درهماً)[3] وطالب رسول الله عمه العباس بالفداء، بل كان فداء العباس أكثر من فداء غيره.

مكث ﷺ على أرض المعركة ثلاثة أيام كان فيها مشغولاً بأصحابه، يعالج قضاياهم وجرحاهم، ويتلقى الوحي من الله سبحانه في علاجه ذلك.. لم يكن ﷺ مشغولاً بمن معه فقط، بل كان يعيش بقلبه وشـــعوره مع أحباب لا يراهم حوله. كان بقلبه وشـــعوره بـــين حرات المدينة.. يتذكر أصحابـــه وأهله، وحبيبته التي لا يدري ما فعل المرض بها، ولا يدري أي حالة تعيشها ابنته رقية.

ترى هل تعافت من مرضها، أم أن الأوجاع تداعت على شبابها؟ تذكر ﷺ المدينة ومن فيها فأرســـل ابنه زيد -زيد بن حارثة[4]- ليبشر المدينة بنصر الله، والقضاء على طواغيت قريش.. يبشـــر بأسر أشـــرافهم في يوم الإسلام العظيم.. يوم الفرقان، وقد كان ابنه أســـامة ابن زيد ملازماً لعثمان ورقية في مرضها، وكان مع أول من اســـتقبل والده وأخباره.

---

(١) حديث صحيح. صحيح الجامع (١-٣١٠).
(٢) حديث حسن. صحيح الجامع (١-٣٠٦).
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠١٨).
(٤) كان يسمى في ذلك الوقت زيد بن محمد.

أســـامة يحدثنا عن ذلك فيقول: (إن النبي ﷺ خلف عثمان بن عفان، وأسامة بن زيـــد على رقية بنت رســـول الله ﷺ أيام بدر، فجاء زيـــد بن حارثة على العضباء ناقة رســـول الله ﷺ بالبشارة، فسمعت الهيعة، فخرجت فإذا زيد قد جاء بالبشارة، فوالله ما صدقت حتى رأيت الأسارى، فضرب رسول الله ﷺ لعثمان بسهمه)[1].

وهذا يعني أن عثمان كان يريد الخروج مع رســـول الله ﷺ، لكن رســـول الله ﷺ أمره بالبقاء لتمريض زوجته رقية.

قال الشـــاب عبد الله بن عمر بن الخطاب إن عثمـــان بن عفان (كانت تحته ابنة رســـول الله ﷺ، وإنها مرضت، فقال له رســـول الله ﷺ: إن لك أجر رجل ممن شـــهد بدراً وسهمه)[2].

لكـــن أين رقيـــة..؟ أين حبيبتك يا عثمان.. أين حبيبة رســـول الله ﷺ وريحانته؟ الإجابة حزن على وجه عثمان، وعلى وجه أسامة.

ماتت رقية رضي الله عنها ووالدها بعيد عنها.. ماتت قبل أن ترى والدها، وتطمئن على ســـلامته.. دون أن ترى أختها الحزينة زينب. ها هو الحزن من جديد يخيم على بيـــت النبي ﷺ.. فاطمة تبكي، وأم كلثوم تبكي حزناً على رقية.. كم لعبوا ســـوياً.. كم ضحكوا وتراكضوا وتســـابقوا إلى حضن خديجة، وكـــم تواثبوا وتزاحموا ليركبوا على ظهـــر محمد.. ما أحوج فاطمة وأم كلثوم إلـــى أبيهما، وما أحوجهما إلى خديجة.. ما أحوجهمـــا إلى أختهما الكبيرة زينب.. ينثران على صدرها شـــيئاً من الدموع، فزينب بعيدة هناك.. حزينة هناك.. في مكة لا يعلمان عنها شيئاً، ولا تعلم عنهم شيئاً.

ماتت رقية قبل أن يصل زيد بالخبر، فقد (وافق زيد بن الحارثة ابنه أسامة حين

---

(١) سنده حسن. رواه البيهقي (١٣٠/٣) أخبرنا أبو الحسن المقرئ وهو إمام حافظ ناقد. انظر السير للذهبي (٣٠٥/١٧) وشيخه الحسن الدقاق صحيح السماع من أهل القرآن والصلاح. المصدر السابق (٥٣٥/١٥) وتاريخ بغداد (٤٢٢/٧) وشـــيخه هو الثقة يوســـف ابن يعقوب القاضي. تاريخ بغداد (٣١٠/١٤) وشـــيخه أحد رجال الشـــيخين: الثقة محمد ابن أبي بكر المقدمي. التقريب (١٤٨/٢) وشـــيخه حسن الحديث فهو صدوق في حفظه شـــيء. التهذيب (٥٨/٨) والتقريب (٧٢/٢) وهو من رجال الســـتة واســـمه عمرو بن عاصم الكلابي وشـــيخه ومن فوقه أئمة ثقات: حماد عن هشـــام عن عروة عن أسامة بن زيد. وللحديث شاهد يأتي.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٦٦).

سوى التراب على رقية بنت رسول الله، فقيل له: ذاك أبوك، حين قدم.

قال أسـامة: فجئت وهو واقف للناس يقول: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل، ونبيه، ومنبه، وأمية بن خلف.

فقلت: يا أبت أحق هذا؟ قال: نعم والله يا بني)[1]

ويختلط الحزن في أجواء المدينة بالفرح، ويبتهج بقية المهاجرين والأنصار بالخبر الذي لا يصدقه إلا مؤمن، ويخفف النصر من الحزن والدموع المنثورة على رحيل رقية، ويخيـم الليل والوجـد على عثمان.. إنه يعود إلى منزله، فـلا يجد فيه رقية.. كم هو مشـتاق إليها.. كم هو وحيد دون رقية، وكم هو وحيد وقد انقطع نسبه مع النبي ﷺ. يا له من ليل حزين لا تبدده إلا الصلاة.

هذا ما يحدث في المدينة، أما على أرض المعركة فتتسـلل خيوط الفجر إلى سـماء بدر، ويشرق بلالٌ بالأذان، ويستيقظ من كان نائماً، ويصلي الجميع خلف رسول الله ﷺ. إنه فجر اليوم الثالث بعد انقضاء المعركة، حيث يأمر ﷺ بالاسـتعداد للعودة إلى المدينة، ويطلب تهيئة راحلته، ويفرغ الجميع مما أمروا به، فينطلق ﷺ إلى غير ما توقع الصحابة، فهذا ليس بطريق المدينة.. إنه يتوقف ويتحدث إلى أقوام بشـيء مفزع ومخيف جعل أحد الصحابة يستفسره عن ذلك؟

أنس بن مالك يحدثنا عن ذلك المسير، وعن ذلك التساؤل فيقول: (فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشـدت عليها رحلها، ثم مشـى واتبعـه أصحابه وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شـفى الركى[2] فجعل يناديهم بأسـمائهم وأسماء آبائهم: [يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعـة... أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقـاً؟] يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسـركم أنكم أطعتم الله ورسـوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟

---

(١) حديث حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم (٣/٢١٧): حدثني عبد الله بن أبي بكر، وصالح بن أبي أمة عن أبيه.. وهذان طريقان يقوي بعضهما بعضاً لأن صالحاً لم يوثقه إلا ابن حبان. ويشـهد للحديث حديث أسامة السابق.

(٢) حافة البئر.

فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟

فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم [ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا[1]][2] ولا يقدرون على أن يعودوا فيتوبوا. مصير أسود رسموه لأنفسهم، وجحيم مرعب تسابقوا إليه، وهم يحملون أصنامهم. أما رسول الله ﷺ فقد تركهم وما تسابقوا إليه، وانعطف براحلته نحو عواطف جياشةٍ تنتظره في طيبة الطيبة، فليت شعري كيف استقبله أحبابه هناك؟ أيهنئون أنفسهم به ويهنئونه بنصر الله؟ أم يعزونه في رقية..؟

كيف استقبله عثمان هناك؟ كيف كانت حالته ﷺ عندما زاحم الحزن فرحاً يزين صدره؟ كيف كانت حالته عندما التقت عيناه بعيني فاطمة وعيني أم كلثوم؟ وكيف شكتا له الوجد على أختهما الحبيبة..؟

لم تصفُ الحياة لمحمد ﷺ.. لم تصفُ لحبيب الله، فالحزن والمعاناة جزء من حياته.. يفقد ابنته الشابة، ويصبر ويحتسب ويتوهج بوعد الله، فيخفف عن غيره مصيبته ولوعته رغم ما هو فيه، ويقول لعثمان: (لك أجر رجل شهد بدراً وسهمه)[3]

وفي مكان آخر من المدينة تركض أم حارثة.. ذلك الشاب المكلف بالمراقبة والرصد، والذي استشهد هناك في بدر. أمه اليوم مذهولة تتلقى الركب.. تمسك بأزمة المطايا.. تسأل عن حبيبها وفلذة كبدها، فيقع الخبر عليها كالموت، فيحملها الحزن إلى نبيها ﷺ.

لقد (أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع. فقال ﷺ: ويحك، أَوَهبلت؟ أَوَجنةٌ واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه في جنة الفردوس)[4] و(الفردوس ربوة الجنة وأعلاها وأوسطها، ومنها تفجر أنهار الجنة)[5].

---

(١) أي أنهم يستمعون لقوله ﷺ حقاً أثناء خطابه لهم.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري عن أنس (٣٩٧٦) وما بين المعقوفين عند مسلم عن أنس.

(٣) حديث صحيح مر معنا وهو عند البخاري (٤٠٦٦).

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري -٤-١٤٦٢.

(٥) حديث صحيح. (صحيح الجامع الصغير ٢-٧٨٩).

سافر حارثة إلى الفردوس، إلى مدنها الساحرة، وبحيراتها وأنهارها ويخوتها ومركباتها المبحرة والطائرة والسيارة.. سافر إلى أحلامه وأمانيه ليجدها فوق ما يتصور ويتخيل ويحلم، فيتمنى العودة ليقتل مرات ومرات حتى يرى أنه استحقها. أما أمه الثكلى فعادت إلى بيتها صابرة محتسبة، فلقد حول الإسلام حزنها إلى مبعث لسعادتها، فاختلطت دموع الحزن بالفرح عند المؤمنين فـ (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر وكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)[1]. وعجباً لهذا النبي ما أرحمه. إنه يتجاوز أحزانه إلى الآخرين، ليخفف عنهم، ليحثهم على الإبحار مع شهدائهم في أنهار الجنة، وأهل بيته كانوا مثله.. يواسون تلك البيوت الحزينة، كهذا البيت الذي تنوح فيه عفراء رضي الله عنها:

عفراء حزينة تنوح

عفراء حزينة على صغيريها. عاد الرجال من القتال.. عاد المحاربون بالأسرى والجمال، ولم يعودوا بالصغار.. لم يعودوا بعوف، ولا بمعوذ، ولن تراهما عفراء بعد الآن، ولن تناديهما لقضاء حوائجها بعد اليوم.. لن تبحث عن عروس لعوف، أو لأخيه، ولن تسعد مع نساء المدينة بزفاف بهيج لهما. ولن تفرح بأحفادها منهم.

عفراء مشتاقة إلى صغيريها.. يحترق جوفها من الحزن، وتحمر عيناها من البكاء، ولا يدرك وجد الأم إلا الأم.. خيمة حزن بيت عفراء، أما بيت النبي ﷺ فكان غيمةً من المشاعر.. تمتد إلى الجميع. ها هي سودة وقد سمعت بما حدث لعوف وأخيه.. تتوجه إلى بيت أمهما.. تواسيها، وتعزيها، وتخفف أحزانها ببشرى الشهادة، فصغيراها قد اجتثا فرعون الأمة، وعدو الله ورسوله، وهو أمر يسر أهل السماوات والأرض، ويُخلد ذكرهما، وذكر أمهما. مكثت سودة رضي الله عنها وقتاً عند عفراء، لكن مفاجأةً أخرجتها فعادت إلى بيت زوجها ﷺ متأثرةً بحال تلك الأم الوالهة الجريحة، وتأثرت كذلك بوقع تلك المفاجأة، فتحولت مشاعر سودة إلى كلمات عاتبها الرسول ﷺ عليها فـ:

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-٢٢٩٥.

ماذا قالت سودة حتى عاتبها زوجها

هذه هي القصة كما يرويها لنا الأنصاري عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة رضي الله عنهما فيقول : (قُدم بالأسـارى حين قدم بهم المدينة، وسـودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء، وذلك قبل أن يضرب الحجاب. قالت سـودة: فوالله إني لعندهم، إذ أُتينا فقيل: هؤلاء الأسارى قد أتي بهم، فرجعت إلى بيتي ورسـول الله ﷺ فيه، فإذا أبو يزيد (سـهيل بن عمرو) فـي ناحية الحجرة، ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبلٍ، فوالله ما ملكت حين رأيت أبا يزيد كذلك، أن قلت: أبا يزيد أعطيتم بأيديكم! ألا متم كراماً .؟

فمـا انتبهـت إلا بقول رسـول الله ﷺ من البيت: يا سـودة أعلى الله ورسـوله تحرضين؟!

فقلت: يا رسـول الله، والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسـي حـين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل، أن قلت ما قلت)[1].

لقد غمرت سـودة أجواءٌ مشـحونة بالأحـزان، والأحداث والمفاجـآت.. تتدافع نحوها.. تتهـاوى عليها، وكأن العالم يتقوض فوق رأسـها. فتنفلت منها تلك الكلمات دون أن تشـعر.. موت رقية، ومناحة عفراء، وأسـير من سـادات قريش وكرمائها في حجرتهـا.. خطيب قريش وحكيمها مجموعـة يداه إلى عنقه.. متكوم كالذل في زاوية الحجرة.. منظر يثير الشـفقة والرأفة، وامرأة رقيقة المشـاعر زادها الإيمان شفافية تشـهد ذلك كله، لكن رسـول الله ﷺ لم يعنفها.. لم يكفرها بتلك الحروف الشاردة. كان ﷺ مربياً. أشـعرها دون أن يخدش مشاعرها، وأعادها دون أن يجرحها. سألها سؤالاً.. سأل إيماناً متجذراً في أعماقها، فأفاقت واعتذرت لله ولرسوله ﷺ، وأفاقت المدينة كلها على وقع الحوافر والخفاف، الجمال والخيل والأحمال تملأ شوارع المدينة، والحقد والغيظ يملأ قلوب اليهود والمنافقين، فقد اسـتجاب الله لرسـوله (حين خرج

---

(١) سـنده صحيح. رواه ابن إسـحاق ومن طريقه الحاكم (٢٢/٣): حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسـعد بن زرارة عن جده.. وشـيخ ابن إسـحاق ثقة (التقريب ٢٩٧) ويحيى تابعي ثقة (التقريب ٥٩٣) وجده صحابي.

فقال: اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم، ففتح الله لهم يوم بدر، فانقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين واكتسوا وشبعوا)[1]

فرح وعناق في الشوارع، وعلى الأبواب وخلف الأبواب، ورغم هذا الفرح المتدفق في الشوارع والقلوب.. كان ﷺ مأخوذاً بهموم وهموم.. الدعوة والقيادة والأسرى، وبيته الحزين على رقية، وزينب البعيدة بين جبال مكة.

يا له من شوق حمله ﷺ إلى المشي حيث يؤسر زوجها وابن خالتها (أبي العاص بن الربيع) إنه الآن بين الأسرى، ولا أدري في أي حجرة هو. لكن شوق النبي ﷺ إلى ريحانته زينب يأخذه إلى حيث يقبع أبو العاص، ليحدثه في شأن زينب، فلا يتركه حتى (أخذ عليه أو وعده أن يخلي سبيل زينب إليه)[2] ولكن هذا لا يعني أن يعفى زوج ابنة رسول الله ﷺ من الفداء. فهو أحد الأسرى، ولا فرق بينه وبينهم، وما طلبه الرسول ﷺ منه كان طلباً شخصياً لا علاقة له بالحرب، فزينب هي ابنة خديجة بنت خويلد، وأبو العاص هو ابن خالتها هالة بنت خويلد.. هالة التي كان تحلق برسول الله ﷺ في أجواء من الذكريات الحبيبة، فتثير الغيرة في قلب الشابة عائشة رضي الله عنها.

تحدثنا أم المؤمنين عن غيرتها فتقول: (استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة، فارتاع فقال: اللهم هالة! فغرت)[3].

وسوف ينفذ أبو العاص ويفي بوعده، فهو رجل كريم حسن الخلق وإلا لما زوجه رسول الله ﷺ أكبر بناته.

غادر ﷺ أبا العاص بن الربيع إلى أسير آخر يتململ من أسره، وتخجله ثيابه الممزقة.. إنه عمه (العباس) الذي أحزن منظر ثيابه رسول ﷺ، لكن أحد مشركي المدينة شعر بالشفقة على مشركي قريش، فقام بعمل يكسب به معروفاً على النبي عليه السلام، ومعروفاً على مشركي قريش.

---

(١) حديث حسن مر معنا وقد حسنه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢/٥٢٥).
(٢) حديث حسن. رواه أبو داود وحسنه الإمام الألباني (٢/٥١٢).
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٢٨٩ ومسلم ١-٤١٠ .

(عبد الله بن أبي بن سلول) الوثني الحاقد على هذه الدولة التي تحميه، المحتقن من هذا الانتصار العظيم يقدم هدية للعباس. جابر بن عبد الله الأنصاري يقول: «لما كان يوم بدر، أتى بأسارى، وأتى بالعباس، ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي ﷺ له قميصاً فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه، فكساه النبي ﷺ»[1]

شكر النبي ﷺ ابن سلول صنيعه وحفظه له، وترك عمه العباس في أسره، وتوجه نحو أصحابه، وتحدث معهم عن الأسرى، فجرى الحديث على ذكر أحد شيوخ قريش في الأسر، فكانت:

المعجزة

لقد قيل إن (في الأسرى (أبو وداعة بن صبرة السهمي)، فقال رسول الله ﷺ: إن له بمكة ابناً تاجراً كيساً ذا مال، كأنكم به قد جاءكم في فداء أبيه)[2] وابنه هذا اسمه: المطلب بن أبي وداعة. معجزة ينطق بها ﷺ، وهو لا ينطق عن الهوى، لكن ما السبب الذي جعل المطلب ينهض مسرعاً نحو المدينة؟

دعونا ننتقل إلى أجواء مكة الكئيبة.. بين منازلها وجبالها. حيث أصاب حجر فارس الأحلام، الذي رأته عاتكة بنت عبد المطلب في منامها كل منزل من منازل قريش، وشظايا ذلك الحجر الآن نزيف في كل قلب يسكن مكة. امتلأت البيوت والأخبية بالبكاء والعويل، وشقت الثياب، وارتفع النواح، ونثر التراب على الرؤوس. فأبو سفيان الذي نجا بالقافلة لم ينج من جراح بدر، فقد أثخنته في أعماقه.. ها هي هند بنت عتبة زوجته تنوح وتنوح، وقد أصيبت بما لم يصب به غيرها. التهمت الصحراء والدها عتبة، وعمها شيبة، وأخاها الوليد، وهم شجعان العرب وسادة قريش. ترى ماذا فعلت هند بثيابها؟ وإلى أي مدى ارتفع نشيجها ونواحها؟ وهناك (أم جميل) أخت أبي سفيان.. حمالة الحطب المجرمة. لا بد أنها احترقت بما سمعت، وهناك زوجة أبي جهل.. ماذا فعلت عندما أخبرها عكرمة بقصة هلاك والده؟ وزوجة أمية بن خلف.. لا بد أنه قد جن جنونها عندما علمت بموت زوجها الشنيع مع ابنها علي.

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٩٥.

(٢) تخريجه في الحديث التالي فهو جزء منه.

أبو لهب طار صوابه لدوي انتصار ابن أخيه.. يطرق المدى والآفاق.. أجواء بائسة بائسة، ومكة تكاد تحترق بأنفاس أهلها وغيظهم.. الذهول تجده في كل زاوية، وعلى كل وجه.

لكن هناك من اختلطت في نفسه مشاعر البهجة بالأسى.. عاتكة بنت عبد المطلب تفرح بتحقق رؤياها، وهلاك طواغيتها، لكن العباس وعقيلاً قد وقعوا في الأسر. وفي بيت عقبة بن أبي معيط كانت ابنته المحبوسة (أم كلثوم) لا بد أنها حزنت كثيراً لموت أبيها مشركاً. فإذا تخطينا عدة أبيات، ثم توقفنا ودلفنا.. وجدنا زينب ابنة النبي ﷺ والوجوم يلفها.. زوجها أسير، ووالدها وأخواتها بعيدون عنها، وبعض أهل مكة يقتلونها بنظراتهم، لكنها تصبر وتحتسب المرارة والحزن عند الله، وتسمع عن الفداء، فترفع يديها خلف رقبتها، وتحل رباط قلادة لها، وتبحث عن أمين يبعث بهذه القلادة إلى والدها، عل هذه القلادة تحرر أسيرها وحبيبها.

أما المطلب بن أبي وداعة، والذي تنبأ الرسول ﷺ بقدومه إلى المدينة ليفك أسر أبيه، فيسير نحو مجلس لبعض رجالات قريش، الذين ندموا على كثرة النواح والعويل على من التهمتهم الصحراء في بدر. فماذا قال المطلب في ذلك المجلس؟

لقد (كانت قريش ناحت على قتلاها، ثم ندمت، وقالوا: لا تنوحوا عليهم، فيبلغ ذلك محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم،...

فلما قالت قريش في الفداء ما قالت، قال المطلب: صدقتم والله لئن فعلتم ليثأرن عليكم. ثم انسل في الليل، فقدم المدينة، ففدى أباه بأربعة آلاف درهم)[1] واصطحبه معه إلى مكة، ورأى الصحابة معجزة نبوية أخرى، وتتابع المشركون بعده يفدون أسراهم بأموالهم، لكن هناك من يحلم بـ:

إطلاق الأسرى دون مقابل

أحدهم كان يحمل طموحاً أكبر، فهو يطمح إلى إطلاق جميع الأسرى. إنه الذي رأى الملائكة على أرض بدر، وهو أحد وجهاء قريش: (جبير بن مطعم بن عدي) ابن

(١) سنده حسن رواه الطبراني (الجزء المفقود رقم ١١) من طريقين:.. وهب بن جرير و... عبيد بن عقيل قالا: حدثنا جرير بن حازم، حدثنا ابن إسحاق، حدثني يحيى بن عباد عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير. صرح ابن اسحاق بالسماع من التابعي الثقة يحيى بن عباد التقريب ٥٩٢ وأبوه تابعي ثقة وجرير ثقة إلا عن قتادة وهذا ليس منه ووالده أوثق منه.

ذلك الشـــهم الكريم «المطعـــم بن عدي».. يمتطي راحلته متجهـــاً نحو المدينة، ليجتمع برسول الله ﷺ في محاولة منه لإطلاق سراح الأسارى من قومه، لكنه يقع في الأسر. لم يأسره أحد من الصحابة، ولا حتى من قطاع الطرق! أسره القرآن وهو يمشي بهدوء بمحاذاة جدار مسجد النبي ﷺ.. في سويعات هادئة بعد الغروب.

يقـــول جبير: إنه (جاء في فداء أســـارى أهل بدر، فوافقت رســـول الله ﷺ يقرأ فـــي صلاة المغرب: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ فأخذني من قراءته فكان ذلك أول ما سمعت من أمر الإسلام)[1] (فسمعته وهو يقرأ وقد خرج صوته مـــن المســـجد ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ فكأنما صدع قلبي)[2]، (وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي)[3]، فاســـتجاب جبيـــر بن مطعم لقلبه الذي تعلق بهذا الصوت المنساب من المسجد، فتوقف يستمع إلى النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۖ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝١٨ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝٢١ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۝٢٣ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۝٢٤ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ

---

(١) حديث حســـن من أجل أســـامة بن زيد الليثي وهو حســـن الحديث إذا لم يخالف ويشهد له ما بعده عند البخاري.. والحديث رواه الطبراني (٢-١١٧).

(٢) حســـن. رواه الطبراني (٢-١١٧-١١٨) من طريقين عن هشيم وعزاه لأبي يعلى وهشيم رواه من طريقين: حدثنا سفيان بن حسين عن الزهري عن محمد بن جبير عن أبيه. وأخبرنا إبراهيم بن محمد بن جبير عن أبيه عن جده. وقد صرح هشيم، وسفيان ثقة في غير الزهري، فهذه الطريق ضعيفة وأما الطريق الثانية فهشـــيم ســـمعه من الزهري ومع ذلك فهو معلول لأنه كتب عنه فطيرت الريح أوراقه بعد خروجه فأصبح معلول الحديث إذا روى عنه. وهذان الطريقان يقوي بعضهما البعض بالإضافة إلى حديث البخاري.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٢٣).

بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1].

يقــول جبير: (فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾. كاد قلبي أن يطير)[2].

كان جبير خلف الجدار يشقى بقلبه، بينما كان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية الصحابة ينعمون بالقرآن والصلاة حتى أتموا صلاتهم، ثم سلم النبي ﷺ وسلم الصحابة من خلفه، وبعد قليل انصرفوا، وانصرف النبي ﷺ، فتوجه إليه جبير ابن مطعم، فاســتقبله النبي ﷺ بكل الوفاء والعرفان مذكراً إياه بكرم أبيه «المطعم بن عدي». قدَّم جبير للنبي ﷺ التماســاً يطلب فيه إطلاق الأسرى من قريش، لكن إجابة الرسول ﷺ كانت مخرسة.

لقد قال له: (لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له)[3] فهِمَ جبير بن مطعم إجابة النبي ﷺ، فانصرف بغير القلب الذي جاء به.. يحمل إيماناً يصارع كفراً.. يحمل همَّ عمه الذي قتله حمزة، ويحمل تقديراً للنبي ﷺ وإجلالاً، بعد أن سمع ما يسر من ثناء على أبيه واحتفاظ بالجميل.

عاد جبير إلى مكة ولم يعد الأســرى، وما زال أبو العاص بن الربيع بينهم، وذات يوم يصل إلى المدينة رجل يحمل مالاً، ويحمل قلادة إلى رســول الله ﷺ، فيأخذ عليه

---

(١) سورة الطور: الآيات ٧-٣٧.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٨٥٤).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٢٣).

السلام تلك القلادة، وتهتز نياط قلبه وهو يقلبها، وتتعلق عيناه بها فتحمله بعيداً.. بعيداً حيث خديجة.. حيث زينب وحيث مكة الحبيبة، فينضح قلبه بالحزن، ولسانه بالرجاء لأصحابه أن يخففوا أحزانه وأحزان حبيبته.

فيتأثر من حوله بمشهد الحرمان والشوق والغربة الذي يحيط بهذا النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم جميعاً.

تقول عائشة رضي الله عنها: (لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت لخديجة، أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا. فقالوا: نعم يا رسول الله. فأطلقوه وردوا عليها الذي لها)[1] وقبل أن ينطلق أبو العاص إلى زينب أكد لرسول الله ﷺ أنه سيبعث بزينب، وذلك بتحديد مكان تلاقي فيه من سيرسله رسول الله ﷺ لمرافقتها في طريق هجرتها. هذا المكان هو أحد بطون الأودية واسمه (بطن يأجج)، وهو قريب من مكة. ثم انطلق أبو العاص إلى مكة، ولما وصل إلى زينب فرحت به، وفرح بها وسلمها قلادتها وحريتها، فاختارت الله ورسوله، وتوجهت إلى (بطن يأجج) بصحبة ابنتها الصغيرة أمامة.

أما في المدينة فقد (بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: (كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب، فتصحبانها حتى تأتياني بها، فخرجا مكانهما، وذلك بعد بدر بشهر أو شيعة، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها فخرجت جهرة)[2] بعد أن سلمها أبو العاص قلادتها وحريتها، وأبقى لنفسه الهواجس والحرمان. وفي بطن (يأجج) رافقها أخوها زيد وصاحبه إلى أبيها.. إلى المدينة المنورة بالإسلام. فرح بها رسول الله ﷺ.. فرحت بها فاطمة، وفرحت بها أم كلثوم، لكن وصولها لامس

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق وأحمد ٦-٢٧٦ وغيره من طريقه: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة. وهو سند مر معنا فيحيى ثقة ووالده أوثق منه.

(٢) هذه الزيادة هي آخر الحديث السابق وبالسند نفسه عند الطبراني ٢٢-٢٨ وأبي داود ٢٦٩٢ وهي زيادة قوية وتلميذ ابن إسحاق هو محمد بن سلمة الباهلي ثقة من رجال مسلم التهذيب ٩-١٩٤ وتلميذ ابن سلمة شيخ أبي داود ثقة حافظ عبد الله بن محمد بن علي بن نفيل وتلميذ النفيلي - شيخ الطبراني هو عبد الله بن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب وهو ثقة كما قال الدار قطني (بلغة القاصي ٨٨).

جرحاً في أعماقهن على رقية الراحلة.. الراقدة تحت أطباق الثرى.. ذكرى رقية، وما أصابها في سبيل الله من غربة وآلام.. آذاها المشركون في مكة، فهاجرت مع عثمان إلى الحبشة، ثم عادت إلى مكة، ثم هاجرت إلى المدينة، ولم يطل بقاؤها في المدينة حتى اجتاحتها أوجاع خطفتها، وخطفت شبابها.

كان ذلك كله في سبيل الله، وهذا ما يهون من الحرقة عليها، فهي راحلة إلى النعيم الخالد. تلك هي قصة زينب وأسيرها ف:

ماذا عن بقية الأسرى

غادر الأسرى إلى مكة بعد أن دفعوا الفدية، ولكن بقي أناس منهم لا يملكون فداءً ولا مالاً.. استخففهم أبو جهل فأطاعوه، وقد ذهب أبو جهل إلى النار وتركهم بين القيود، وهناك آخرون رفض أهلهم دفع الفداء، فماذا سيفعل بهم الرسول ﷺ؟

هل سيقتلهم، أم سيكون الأسر وأعمال السخرة والتعذيب مصيرهم حتى تجمع لهم قريش مالاً؟

لا هذا ولا ذاك. إن رسول الله ﷺ أكبر من أن يكلفهم ما لا يطيقون، والإسلام ما جاء ليصادر الحريات، بل ليدعمها ويطلقها في طرقات البناء والإسلام.

نزل القرآن الكريم يقول للنبي ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ ﴾[1].

كلمات تسقي بذور الخير في قلوب هؤلاء الأسرى، وتجعلهم أصحاب أفق أبعد، وتفكير أرقى.. كلمات تقدم المغفرة والجنة، فمن أراد الإسلام فلا حاجة لأسره، فليعش بين أهل المدينة على الرحب والإيمان والسعة. أما من يأبى ذلك، فلا حاجة للمسلمين في حبس حريته.. أبواب الحرية أمامه مشرعة، لكن عليه قبل ذلك أن يؤدي.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٠.

الخدمة الاجتماعية بدلاً من الحبس

وبذلك يستفاد منه ومن بقائه بين أظهر المسلمين، بدلاً من إرهاق ميزانية الدولة المسلمة الفقيرة بالإنفاق عليهم.. رغم أن هذا الإنفاق فيه أجر عظيم، وعظيم جداً. كما قال تعالى في وصف الصحابة أنهم: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[1] لذلك أمروا بالخدمة الاجتماعية. فما هي الخدمة التي أداها هؤلاء مقابل حريتهم؟

يقول أحد الصحابة: (كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة)[2] وقد حدثت قصة طريفة بين أحد هؤلاء الأسارى وبين والد أحد أولئك الأطفال، عندما (جاء غلام من أولاد الأنصار إلى أبيه فقال: ما شأنك؟ قال: ضربني معلمي.

قال: الخبيث يطلب بذحل بدر؟ والله لا تأتيه أبداً) أي يأخذ ثأره مما حدث له في غزوة بدر بضرب ذلك الطفل.

وبذلك يؤكد النبي ﷺ مبدأ العلم، وأنه (فريضة على كل مسلم)[3] كما يفتح ﷺ باب خدمة المجتمع كبديل للحبس. فتعلم جزء كبير من أبناء الأنصار القراءة والكتابة، وتفوق المسلمون على عدوهم حرباً وعلماً، وعاد بقية الأسرى إلى مكة، بعد أن أدوا تلك الوظيفة الاجتماعية.

أصابت الدهشة جزيرة العرب لهذا الانتصار، وتفاقم الحقد في نفوس اليهود، وضاقوا بما جرى، ولا أدري لم كل هذا الحقد اليهودي والحسد والأمر كوجه الشمس؟

إنه النبي الذي جاء ليحررهم من الاضطهاد والطغيان، ويخفف عنهم بعض الأحكام التي عوقبوا بها لتمردهم. لا أدري لم كل هذا التبرم والعناد وهم يعرفون أنه ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٨.

(٢) سنده قوي. رواه أحمد ١-٢٤٧ وغيره عن علي بن عاصم حدثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس.. وهو صحيح لولا أخطاء ابن عاصم فهو صدوق يخطئ التقريب ٤٠٣ وهو هنا لم يخطئ فقد تابعه خالد بن عبد الله الطحان ثقة ثبت من رجال الشيخين.

(٣) حديث صحيح. (صحيح الجامع ٢-٧٢٧).

obeikandi.com

يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[1]، وقد تمكن الأحبار والرهبان فيما بعد أن يحذفوا اسم محمد ﷺ من التوراة والإنجيل، لكنهم لم يتمتعوا بقدر من الذكاء يمكنهم من طمس كل شيء يتعلق بمحمد في التوراة والإنجيل. لقد كانوا من الغباء بحيث أبقوا على وصف أحداث وأماكن لا يمكن أن تنطبق إلا على محمد ﷺ، فمثلاً غفلوا عن هذه الكلمات في التوراة، والتي تقول: (هذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته، فقال: أقبل الرب من سيناء، وأشرق لهم من جبل ساعير وتجلى من جبل فاران)[2] حذفوا اسم محمدٍ ونسوا كلمة (فاران) فجبال فاران هي جبال مكة، وموسى وعيسى، وكل أنبياء بني إسرائيل ليس لهم علاقة بجبال فاران، أي جبال مكة حسب التوراة والإنجيل. فمن هو النبي الذي أوحي إليه وهو فوق جبال فاران، كما أوحي إلى موسى بين جبال سيناء، هل هناك غير محمد ﷺ؟!

شيء آخر.. إنه حادث الهجرة، وحتى غزوة بدر أيضاً كان لهما إشارة في التوراة، وقد حذف الأحبار اسم محمد ﷺ، لكنهم نسوا أن الاسم وحده ليس كل شيء، فالأحداث مفصلة على محمد ﷺ وحده. هكذا تقول توراتهم: (وحي على بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب، بيتوا في صحراء العرب يا قوافل الدّدانيين، هاتوا ماءً للعطشان، يا سكان تيماء استقبلوا الهارب الجائع بالخبز[3]. هم هاربون من أمام السيوف، ومن أمام القوس المشدودة، وويلات الحرب، وهذا ما قاله لي الرب. بعد سنة يفنى كل مجد قيدار (عدنان)، ولا يبقى من أصحاب الأقواس من جبابرة بني (عدنان) قيدار غير القليل)[4].

هذه هي النبوءة التي غفل عنها الأحبار، وتعسف في تأويلها الشراح اليوم، هل تنطبق على نبي غير محمد ﷺ؟ من هو الذي جاء بالوحي من جهة بلاد العرب؟ من هو الذي هرب وأصحابه من شدة العذاب ولظى السيوف؟ من هو النبي الذي هرب

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

(٢) الكتاب المقدس ٨٧٥ وانظر محمد...

(٣) أي رسول الله ﷺ ومن معه... وتيماء واحة عربية والدّدانيين شعب عربي.

(٤) الكتاب المقدس، إصحاح إشعيا، ٢١، ص٨٧٥.

مـــن قومـــه (بني عدنان) ثم حاربهم بعد عام؟ من هو الذي أفنى جبابرتهم ولم يبق من جبابرتهم سوى القليل..؟

مـــن هـــو النبي الذي أفنـــى هيبة قريش، وهـــم بنو عدنان بعد ســـنة من هجرته وهروبه، ثم إن هناك حقيقة كالشمس تزداد سطوعاً كلما حاول اليهود إخفاءها.. هذه الحقيقة هي أن التوراة تخاطب اليهود.. اليهود وحدهم، وهي تطلب منهم أن يستقبلوا حامـــل الوحي القادم مـــن بلاد العرب، ومن فاران بالتحديـــد، بالترحاب والخبز، وأن ينصروه فهو هارب من الســـيوف المسلولة والأقواس المشدودة، فلماذا انتقل اليهود من أرض الشام إلى المدينة (يثرب) لماذا تركوا الديار المقدسة الباردة إلى يثرب ذات المناخ الحار، والحمى القاتلة؟

الســـبب واضح: هو أن التوراة كانت فيها تفاصيل أكثر عن هذا النبي، وعن مكان هجرته، وعن وقت خروجه. وإلا فما الذي حشـــر اليهود وجعلهم يزاحمون العرب في (يثرب) ذات الحمى والجبال الوعرة؟ مالذي جعلهم يتحملون كل هذه المعاناة، إلا لأنهم كانوا يريدون أن يوافوا الهارب بالخبز، ويحطموا به العرب والعالم. لكن ويا لأسفهم.. هـــذا الهارب عربي من بني عدنان (قيدار). إنها بالنســـبة لهـــم كارثة. كيف ينقاد بنو إســـرائيل لنبي عربي بعد ذلـــك التاريخ الطويل والحافل بالكتـــب والوحي.. بعد تلك السلسلة الطويلة من الأنبياء العظام من اليهود؟

كيـــف ينقـــاد اليهود المثقفون إلى نبي من هؤلاء العـــرب الذين تغلب عليهم الأمية وتتغلغل في نفوســـهم الوثنية؟ العرب الذين لم يبنوا مدرســـة، ولـــم يؤلفوا كتاباً؟ كيف يرضى اليهود بنبي عربي من بني إســـماعيل..؟ إنه ليس من بني إســـرائيل (يعقوب)، لا ولا حتى من بني إســـحاق. أمر صعب، وحقيقة مـــرة يرفضها اليهود. إنها تعني في نظرهـــم أن يبقى اليهود وكتبهم وتاريخهم على الأرفف، وفي الخزائن لإفســـاح المجال لهذا الجديد الذي يحمله محمد ﷺ.

هذه قصة عجيبة تبين لنا ســـبب قدوم يهود إلى يثرب، وهي تتفق مع ما ورد قبل قليل في التوراة الموجودة اليوم. دعونا نســـتمع إلى رجال تأثروا بالتوراة أكثر مما تأثر بها اليهود أنفسهم.

يقول هؤلاء الرجال: (إن مما دعانا إلى الإسلام، مع رحمة الله تعالى وهداه لنا، أن كنا نسمع من رجل من اليهود، وكنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسول الله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتواعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾)[1].

إذاً فهم في الحقيقة لا ينتظرون نبياً يهديهم إلى الحق، وينقلهم من الظلمات والشرك إلى التوحيد والنور. لقد كانوا ينتظرون ملكاً يبيدون به الجيوش، ويتحكمون به في العالم وثروات العالم، يريدونه مِن نسل يعقوب وإسحاق، لا من أبناء العمومة - أبناء إسماعيل. وهذا أحد اليهود يتلفظ قبل وفاته بهذه الأمنية، ويبين لمن حول فراشه وهو يموت سبب قدومه إلى يثرب، التي يسميها أرض البؤس والجوع، تاركاً وراءه أرض الخضرة والخمر والأنهار.

يروي لنا هذه القصة رجل من يهود بني قريظة هداه الله للإسلام، ويحدث من نقل لنا هذه الرواية فيقول: (هل تدري عمَّ كان إسلام (ثعلبة بن سعيد) و(أسيد بن سعية) و(أسد ابن عبيد) وهم نفر من بني هذل إخوة بني قريظة. كانوا معهم في جاهليتهم ثم كانوا سادتهم في الإسلام؟

قلت: لا.

قال: فإن رجلاً من اليهود من أرض الشام يقال له (ابن الهيِّبان) قدم علينا قبل الإسلام بسنين، فحل بين أظهرنا، لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلي الخمس أفضل منه. فأقام عندنا، فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له: اخرج يا ابن الهيِّبان فاستسق لنا.

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ابن هشام٢-٣٧: حدثني عاصم بن عمر ابن قتادة عن رجال من قومه قالوا: عاصم تابعي ثقة عالم سمع من هؤلاء الصحابة التقريب ٢٦٨.

فيقـول: لا والله، حتى تقدمـوا بين يدي مخرجكم صدقة، فنقول له: كم؟ فيقول: صاعاً من تمر، أو مدين من شعير.

فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسـقي لنا، فوالله ما يبرح مجلسـه حتى يمر السـحاب ويسـقي. قد فعل ذلك غير مرة، ولا مرتين ولا ثلاثاً. ثم حضرته الوفـاة عندنا، فلما عرف أنه ميت قال: يا معشـر يهـود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قلنا: أنت أعلم. قال: فإني إنما قدمت هذه البلـدة أتوكف خروج نبي قـد أظل زمانه، هذه البلدة مُهاجـره، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه وقد أظلكم زمانه، فلا تُسـبقن إليه يا معشـر يهود، فإنه يبعث بسـفك الدماء وسبي الذراري ممن خالفه، فلا يمنعنكم ذلك منه)[1].

لكن ماذا فعل بنو قريظة بعد بعثة النبي ﷺ؟ هل نفذوا وصية هذا الرجل المشتاق؟ أبداً، لقد ظلوا على يهوديتهم المحرفة، ولم يسـلم إلا القليل.. القليل منهم، لكن بعض اليهود لم يكتفوا بالكفر بمحمد ﷺ، بل تفاقم حقدهم فحاولوا نقض المصالحة، وهدم الجسر الذي شيده ﷺ بعد وصوله للمدينة بين أهلها جميعاً.. كفاراً ويهوداً ومسلمين، وكان أحد هؤلاء وأبرزهم يهودي حاقد.. يهودي شـرير أطلق لسانه بالشتم والسباب، ووظف موهبته الشـعرية في الهجاء والسخرية السافلة من الله ورسوله، وكتابه ودينه، ومن دولة الإسـلام وأهلها. ومع ذلك كله يأمر الله نبيه ﷺ بالعفو والصفح والتحمل، وعـدم فتـح جبهة مع هذا الخائـن أو ذاك.. صالحهم ﷺ، وأمرهم بأن يعيشـوا في دولة واحدة.. متعاونين على أعدائها متناسين ما بينهم من خلاف، لكنهم خانوا العهد والميثاق، وتنكروا لحسن الجوار والأخلاق، وكان رأس الفتنة هذا يسمى:

كعب بن الأشرف

يحدثنا عنه وعن شـعره أعلم الناس بشـعره.. شـاعر الأنصار (كعب بن مالك) يتحدث عن كعب بن الأشرف فيقول: (إن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو رسـول الله ﷺ ويحرض عليه كفار قريش في شـعره، وكان رسول الله ﷺ قدم المدينـة وأهلها أخلاطاً: منهم المسـلمون الذين تجمعهم دعوة رسـول الله ﷺ، ومنهم

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق وهو الحديث السابق.

المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود، وهم أهل الحلقة والحصون، وهم حلفاء للحيين الأوس والخزرج.

فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم، وكان الرجل يكون مسلماً وأبوه مشرك، والرجل يكون مسلماً وأخوه مشرك، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله ﷺ المدينة يؤذونه أشد الأذى، فأمر الله رسوله والمسلمين بالصبر والعفو، فقال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾.

وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فأمر رسول الله ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطاً ليقتلوا كعباً، فبعث إليه سعد (محمد بن مسلمة) و(أبا عبس) و(الحارث ابن أخي سعد بن معاذ) في خمسة رهط)[1].

فقال ﷺ: (من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله؟ فقام محمد بن مسملة فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: نعم، قال: فأذن لي رسول الله أن أقول شيئاً.

قال ﷺ: قل)[2] أي سمح له ببعض الكلمات التي يمس فيها رسول الله ﷺ، لكي يخدع بها كعب بن الأشرف، ويتمكن من استدراجه حتى يجهز عليه ويتخلص منه ومن خيانته.

وجاءت ساعة التنفيذ فـ (مشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم وقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم)[3].

---

(١) سنده صحيح. أرسله البيهقي (٣-١٩٧) ووصله أبو داود (٣٠٠٠) ومن طريقه رواه البيهقي: حدثنا محمد ابن يحيى بن فارس أن الحكم بن نافع حدثهم، قال: أخبرنا شعيب عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه. والحديث صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٣٠٠٠) فالزهري وعبد الرحمن تابعيان ثقتان وشعيب ثقة ثبت من أثبت الناس في الزهري التهذيب ٤-٣٥١: وتلميذه ثقة ثبت من رجال الشيخين التقريب ١٧٦ وتلميذه هو الحافظ الجليل والإمام الثقة المشهور (الذهلي).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي (٣-١٩٥).

(٣) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٢٠٠): حدثني ثور بن زيد الديلي عن عكرمة عن ابن عباس. ثور الديلي وشيخه ثقة من رجال الشيخين. التقريب ١٣٥ وشيخه زيد إمام ثقة تلميذ ابن عباس رحمه الله.

إذاً فقد (بعث إليه سعدُ؛ محمدَ بن مسلمة وأبا عبس والحارث ابن أخي سعد بن معاذ في خمسة رهط أتوه عشية، وهو في مجلسهم بالعوالي، فلما رآهم كعب أنكرهم وكاد يذعـــر منهم، فقـــال لهم: ما جاء بكم؟ قالوا: جاءت بنا إليك الحاجة. قال: فليدن إلي بعضكم فليحدثني بها.

فدنا إليه بعضهم، فقال: جئناك لنبيعك أدراعاً لنا لنســـتنفق أثمانها. فقال: والله لئـــن فعلتم ذلك لقد جهدتم، قد نزل بكم هذا الرجل. فواعدهم أن يأتوه عشـــاءً حين يهدأ عنهم الناس.

فجاءوا، فناداه رجل منهم، فقام ليخرج فقالت امرأته: ما طرقوك ســـاعتهم هذه لشيء مما تحب. فقال: بلى، إنهم قد حدثوني حديثهم.

فاعتنقه أبو عبس وضربه محمد بن مســـلمة بالســـيف، وطعنه بعضهم بالسيف فـــي خاصرته)[1] فغرق الحاقد بدمائه، وكان لهذا الغـــرق تفاصيل أخرى يرويها أحد الأنصار، وهو جابر بن عبد الله فيقول: (قام محمد بن مســـلمة فقال: يا رســـول الله أتحب أن أقتله؟ قال: نعم. قال: فَأْذَنْ لي يا رسول الله أن أقول شيئاً. قال: قل.

فأتاه محمد بن مســـلمة فقال: إن هذا الرجل قد ســـألنا صدقة، وإنه قد عنَّانا، وإني قد أتيتك أستسلفك. قال كعب: وأيضاً والله لتملنه. قال: إنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين.

فقال كعب: نعم أرهنوني. قالوا: أي شـــيء تريد؟ قال: أرهنوني نســـاءكم. قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟

قـــال: أرهنوني أبناءكـــم. قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيســـب أحدهم فيقال: رهن بوسق أو وسقين، هذا عار علينا، ولكن نرهنك اللامة[2].

فواعـــده أن يأتيه، فجـــاءه ليلاً ومعه أبـــو نائلة -وهو أخو كعـــب من الرضاعة- فدعاهـــم إلى الحصن، فنزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الســـاعة؟ فقال:

---

(١) جزء من حديث أبي داود والبيهقي السابق.

(٢) أي الدروع أو السلاح.

إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة. قالت: أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم. قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب.

فقال محمد: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشمه، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، فنزل إليه متوشحاً وهو ينفح منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت اليوم ريحاً أطيب.

قال كعب: عندي أعطر نساء العرب وأكمل العرب.

فقال محمد: أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم فشمه، ثم أشم أصحابه ثم قال: أتأذن لي؟ قال: نعم.

فلما استمكن منه قال: دونكم، فقتلوه. ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه)[1] وبشروه بالقضاء على اليهودي مثير الفتن هذا، وكان أحد سادات يهود بني النضير.

هذا الحدث لم يكن سهلاً.. كان أثره عميقاً في نفوس يهود بني النضير، بل إنه قد هز أعماق المشركين من عبدة الأوثان أتباع الوثني المسمى بـ (عبد الله بن أُبي بن سلول) فعندما (قتلوه فزعت اليهود ومن كان معهم من المشركين، فغدوا على رسول الله ﷺ حين أصبحوا فقالوا: إنه طرق صاحبنا الليلة، وهو سيد من ساداتنا فقتل. فذكرهم رسول الله ﷺ الذي كان يقول في أشعاره، وينهاهم به، ودعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم، وبين المسلمين عامة صحيفة كتاباً ينتهون إلى ما فيه.

فكتب النبي ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة، كتبها رسول الله ﷺ تحت العذق الذي كان في دار ابنة الحارث)[2] إذاً فقد تحول العهد والميثاق الشفهي إلى:

وثيقة وطنية مكتوبة بين النبي والمسلمين واليهود

ها هو أحد الصحابة يحدثنا بتفاصيل أدق للعملية السابقة فيقول: (مشى معهم رسول الله إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم وقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم،

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي (٣/١٩٥-١٩٦).

(٢) جزء من حديث أبي داود والبيهقي. السابق وهو صحيح.

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى بيته وهو في ليلة مقمرة، فانطلقوا حتى انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة، وكان حديث عهد بعرس، فوثب في ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت: أنت امرؤ محارب وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة. قال لها كعب: لو دعي الفتى لطعنة أجاب.

فنزل، فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه، ثم قالوا: هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فنتحدث به بقية ليلتنا هذه؟ قال: إن شئتم.

فخرجوا، فمشوا ساعة، ثم إن أبا نائلة شام يده في فود رأسه ثم شم يده فقال: ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط. ثم مشى ساعةً ثم عاد لمثلها حتى اطمأن، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها فأخذ بفودي رأسه ثم قال: اضربوا عدو الله.

فاختلفت عليه أسيافهم، فلم تغن شيئاً،

قال محمد بن مسلمة: فذكرت مغولاً في سيفي، فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار، فوضعته في ثنته، ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته، فوقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح في رجله أو في رأسه، أصابه بعض سيوفنا، فخرجنا حتى سلكنا على بني أمية بن زيد، ثم على بني قريظة، ثم على بعاث، حتى أسندنا في حرة العريض، وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس ونزفه الدم، فوقفنا له ساعة، ثم أتانا يتبع آثارنا فاحتملناه، فجئنا به رسول ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي، فسلمنا عليه فخرج إلينا، فأخبرناه بقتل عدو الله، وتفل رسول الله ﷺ على جرح صاحبنا، ورجعنا إلى أهلنا، فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله، فليس بها يهودي إلا وهو خائف على نفسه)[1] بعد أن رأوا مصير هذا المتآمر، لا سيما وهو أحد زعماء يهود بني النضير وساداتهم.

ملأ الخوف نفوس مشركي المدينة أمثال عبد الله بن أبي بن سلول وغيره، واهتزت حصون اليهود وأوثان المشركين، فعقدوا اجتماعاً خائفاً وقصيراً، فيدُ الموت أصبحت

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير) وروى البيهقي أوله (٣/٢٠٠) من طريق ابن إسحاق: حدثني ثور بن يزيد الديلي عن عكرمة عن ابن عباس.. وقد صرح ابن إسحاق بالسماع من شيخه... وشيخه ثقة من رجال الشيخين. التقريب (١٣٥) وعكرمة تابعي وإمام معروف.

obeikandl.com

طويلة تمتد نحو كل خائن، حتى لو كان زعيماً ككعب بن الأشرف، فما الذي حدث بعد ذلك الاجتماع؟

(فزعت اليهود ومن كان معهم من المشركين، فغدوا على رسول الله ﷺ حين أصبحوا، فقالوا: إنه طرق صاحبنا الليلة وهو سيد من ساداتنا فقتل، فذكرهم رسول الله ﷺ الذي كان يقول في أشعاره وينهاهم به، ودعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة، كتبها رسول الله ﷺ تحت العذق الذي كان في دار ابنة الحارث)[1].

وثيقة وطنية مكتوبة تلقي على جميع سكان المدينة ومواطني الدولة الإسلامية.. مهما كانت ديانتهم، أقلية أو أكثرية.. مسئولية الأمن في هذه الدولة، وعدم ارتكاب أي شيء يزعزع أمنها، وتجنب أي تعاط مع خارج الدولة قد يسبب ضررا لها.

حدت هذه الوثيقة الوطنية من خيانة هؤلاء اليهود ومن يتعاون معهم من المشركين، أمثال عبد الله بن أُبي بن سلول، وغيره من عباد الأوثان. لقد أفحم رسول الله ﷺ قوم كعب بن الأشرف وأتباعه من يهود بني النضير، وأذنابهم من المشركين حينما هرولوا يحتجون على اغتيال ذلك الخائن.

لقد قدم لهم الوثائق التي تدينه.. أسمعهم ﷺ قصائده التي تنخر في عظام المدينة كلها، وكانت تلك القصائد تحرض على انفجار حرب أهلية تلون جدران المدينة بالموت والدماء.. تلك القصائد كانت تحرض قريشاً على التحالف مع اليهود ضد هذه الدولة الفتية، ولا أعرف سبباً واحداً يجعل كعباً وغيره يقدمون على إثارة الفتن والدماء. لقد عاملهم ﷺ بكل لطف واحترام، وجاء من أجل إنقاذهم.. كان ﷺ حليماً حكيماً في التصرف معهم، رغم إساءاتهم المتكررة له، ولدينه ولأصحابه. لقد سكت اليهود عندما سمعوا تلك القصائد، وكان في سكوتهم إدانة لهم. لكن النبي ﷺ لم يشملهم بالعقاب، إنما دعاهم إلى كتابة وثيقة عهد بينهم يأمن بعضهم شر بعض على أساسها، ويُلزم كل طرف بعدم التعاون مع أطراف خارجية ضد أحد أطراف تلك الوثيقة، ولو بالشعر فالشعر آنذاك هو الإعلام.

---

(١) حديث صحيح مر معنا وقد رواه أبو داود والبيهقي (٣-١٩٨).

وافــق بنــو النضير على ذلك، لكن دماء الحقد المتجمــدة الآن في عروق كعب بن الأشرف.. لا تزال حارةً متدفقة في شرايين بني النضير وغيرهم، فلم يمر سوى زمن يسير حتى:

أعلن يهود النضير وقريظة الحرب

يقول الشاب عبد الله بن عمر بن الخطاب: (إن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رســول الله ﷺ، فأجلى رســول الله ﷺ بني النضير، وأقر قريظة ومن عليهم)[1] لكن ما هي:

قصة إجلاء بني النضير

وكيف خانوا وحاربوا، وكيف تصرف رســول ﷺ معهم ومــع خيانة بني قريظة عندما نقضــوا تلك الصحيفة، التي أجمع عليها يهود المدينة كلهم؟ يحدثنا أحد أصحاب النبي ﷺ فيقول: (إن كفار قريش كتبوا إلى عبد الله بن أُبي بن سلول، ومن كان يعبد الأوثان من الأوس والخزرج -ورســول الله ﷺ يومئذٍ بالمدينة- قبل وقعة «بــدر» يقولون: إنكم آويتم صاحبنا، وإنكــم أكثر أهــل المدينة عدداً، وإنا نقســم بالله لتقاتلنه، أو لتخرجنه، أو لنســتعن عليكم العرب، ثم لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم.

فلما بلغ ذلك (ابن أبي) ومن معه من عبدة الأوثان تراســلوا فاجتمعوا، وأرســلوا وأجمعوا لقتال النبي ﷺ وأصحابه، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ فلقيهم في جماعة فقال: لقــد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت لتكيدكــم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم.

فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، وكانت وقعة «بدر» فكتبــت كفــار قريش بعد وقعة بدر إلــى اليهود: إنكم أهل الحلقــة والحصون، وإنكم لتقاتلــن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نســاءكم شــيء (وهو الخلاخل).

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي (٣/١٨٣).

obeikandl.com

فلمـــا بلغ كتابهم اليهود أجمعت بنو النضير على الغدر، فأرســـلت إلى النبي ﷺ: أخـــرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، ولنخرج فـــي ثلاثين حبراً حتى نلتقي في مكان كذا، نصف بيننا وبينكم فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا، فخرج النبـــي ﷺ في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثـــون حبراً من يهود، حتى إذا برزوا فـــي براز[1] من الأرض قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه، كلهم يحب أن يموت قبله، فأرســـلوا إليه: كيف تفهم ونفهم ونحن ســـتون رجلاً؟ أخرج في ثلاثة من أصحابك، ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فليســـمعوا منك، فإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدقناك.

فخرج النبي ﷺ في ثلاثة نفر من أصحابه. واشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك برســـول الله ﷺ، فأرســـلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى بني أخيها -وهو رجل مسلم من الأنصار-، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير من الغدر برسول ﷺ، فأقبل أخوها ســـريعاً، حتى أدرك النبي ﷺ فســـارَّه بخبرهم قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم، فرجع النبي ﷺ.

فلما كان من الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب، فحاصرهم وقال لهم: إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه.

فأبـــوا أن يعطـــوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمســـلمون، ثـــم غدا الغد على بنـــي قريظة بالخيل والكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة، والحلقة (السلاح).

فجـــاءت بنو النضير، واحتملوا ما أقلت إبل من أمتعهم وأبواب بيوتهم وخشـــبها، فكانـــوا يخربون بيوتهـــم، فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشـــبها، وكان جلاؤهم ذلك أول حشـــر الناس إلى الشام، وكان بنو النضير من سبط من أسباط بني إسرائيل لم يصبهم جلاء منذ كتب الله على بني إســـرائيل الجلاء، فلذلك أجلاهم رســـول الله ﷺ، فلـــولا ما كتب اللـــه عليهم من الجلاء لعذبهم في الدنيا كمـــا عذبت بنو قريظة،

---

(١) في مكان مرتفع.

obeikandi.com

فأنـــزل اللـــه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ وكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة فأعطاه الله إياها وخصه بها فقال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يقول: بغير قتال.

فأعطـــى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين وقســـمها بينهم، ولرجلين من الأنصار كانا ذوي حاجة، لم يقسم لرجل من الأنصار غيرهما)[1].

هـــذه هي قصة يهود بني النضيـــر.. قدموا إلى المدينة بحثاً عـــن النبي المنتظر، فلمـــا بعث هـــذا النبي وجدوه عربياً وليس من بني إســـرائيل، فكرهوه، وعاهدوه على مضض، ولما حانت لهم الفرصـــة خانوه ونقضوا كل عهودهم ومواثيقهم معه، فعاقبهم الله بالشتات، فاستأنفوا رحلة الضياع من جديد بعد أن حاصرهم المسلمون، فصاروا يخربون بيوتهم غيظاً وحســـداً حتى لا يستفيد منها المسلمون. لكن الغيظ القاتل جلل اليهود، ورافقهم عندما وجدوا المســـلمين أنفســـهم يخربون تلـــك البيوت ولا يكترثون. فالمسلمون لم يحاصروا بني النضير من أجل بيوتهم وأموالهم ونخيلهم، بل لأنهم خونة، وإذا كان اليهود يرون في تلك البيوت ثروة للمسلمين، فالمسلمون لا يريدون تلك الثروة، ولا يقبلـــون بقـــاء الخونة بينهـــم أو في جوارهم، بل لقد أقدم المســـلمون على تصرف يحرقون به آثار اليهود.

---

(١) صحح إسناده الإمام الألباني في كتابه «صحيح سنن أبي داود ٢-٥٨٢ حديث (٣٠٠٤) فقد قال: صحيح الإسناد. ولمزيد من التفصيل راجع موسوعة السيرة.

يخبرنا عن ذلك أحد الصحابة رضي الله عنه في قوله: (﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ قال: يستنزلونهم من حصونهم، وأمروا بقطع النخل فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضاً، تركنا بعضاً، فلنسألن رسول الله ﷺ: هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾)[1] أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله.

هذا هو الإسلام، وهؤلاء هم المسلمون، وهذه هي التربية الإسلامية التي لا تنحصر بين أروقة المساجد، وجدران البيوت.. تربية تنتشر في كل اتجاه، وتصاحب المؤمن في كل مكان، وتحت أي ظرف.. في أوج الحروب. بين بريق السيوف والدماء وتفجر الحماس والغضب لله يتوقف المسلمون ليسألوا رسول الله ﷺ عن صحة تصرفهم مع فسيلة نخل؟ الإسلام يشكل تعاملاتهم مع كل شيء، حتى مع جذوع النخل، بعد أن أرشدهم إلى التعامل مع جذوع الخيانة وجذورها اليهودية.

غادر اليهود من بني النضير إلى الشام، وإلى غير رجعة. غادروا يبحثون عن نبي غير عربي يأتيهم حسب رغباتهم، ويأتيهم بما يشتهون، وبقي منهم في المدينة من اختار الله ورسوله، ودخل في الإسلام مكرماً بين حفاوة المؤمنين. غادر (النضير) فهدأت المدينة، وعاد إليها المؤمنون بنصر جديد، وفرح جديد، وعاد عثمان إلى بيته، فعاد الحنين إلى رقية. شعر ﷺ بشوق عثمان وحزنه.. لا بد أنه شعر. ونبي الله ﷺ لا يكتفي بحمل المشاعر لمواساة المحتاجين إلى المواساة.. إنه يشع كالحب في المكان والإنسان.

ها هو يواسي عثمان، وها هو يواسي عمر وعلياً أيضاً.. يجعل منهم نسيجاً وأوشاجاً بارعة الجمال. تعالوا معي إلى البداية.. إلى بيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم، فقد كان لابن الخطاب ابنة سماها (حفصة) زوَّجها من صحابي اسمه: (خنيس بن حذافة السهمي) وكان خنيس أحد المهاجرين إلى الله ورسوله. لم

---

(١) سنده صحيح رواه النسائي في الكبرى ٦- ٤٨٣: أخبرنا الحسن بن محمد بن عفان، حدثنا حفص بن غياث، حدثنا حبيب بن أبي عمر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.. سعيد تابعي مجاهد ثقة وحبيب وحفص ثقتان من رجال الشيخين، والحسن الزعفراني ثقة من شيوخ النسائي. انظر التهذيب (٧-٢٣٠، ٢-٣١٨ و٤١٥) وشيخه أوثق منه.

يعـــش خنيس مع حفصة طويلاً، فلقـــد توفي في المدينة رضي الله عنه، وبعد فترة من الزمـــن حدثت هذه القصة، التي يرويها عبد الله بن عمر فيقول (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين تأيمت حفصة[1] بنت عمر، من خنيس بن حذافة الســـهمي، وكان من أصحاب رســـول الله ﷺ، فتوفي بالمدينـــة، فقال عمر: أتيت عثمان فعرضت عليه حفصة بنت عمر، فقلت: إن شئت أنكحتك؟ فقال: سأنظر في أمري. فلبثت ليالي، ثم لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا.

قـــال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق فقلت: إن شـــئت زوجتـــك حفصة بنت عمر؟ فصمت أبو بكر، فلم يرجع إلي شيئاً، فكنت عليه أوجد مني على عثمان.

فلبثت ليالي، ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت علي حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك شيئاً؟ قال عمر: نعم. قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت علي، إلا أني كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها)[2].

فرح عمر بمصاهرة رسول الله ﷺ، وفازت حفصة بنبي الأمة عليه السلام، وقبل عمر اعتذار أبي بكر، أما عثمان بن عفان فعذره لا يحتاج إلى بيان، وحزنه يملأ حياته، لكن الله ورســـوله أرحم بقلب عثمان من أن تذهب به الهموم أبعد من هذا. لقد زوجه رسول الله ﷺ من ابنته أم كلثوم رضي الله عنها، فعاد النبض والحياة إلى النسب بين عثمان وبيت النبوة الكريم.

ابتهـــج عثمان، وابتهجـــت أم كلثوم، وابتهجت المدينة بهذا العرس الجميل، فشـــع فـــي صدر أبي بكر طمع مباح، وطموح كالأماني. رغب أبو بكر بقرب أكثر من رســـول اللـــه ﷺ، وكانت عيناه وقلبه باتجاه آخر أمل في ذلك.. باتجاه فاطمة بنت محمد ﷺ (ســـيدة نســـاء العالمين)[3] وآخر ريحانة من رياحينه الأربع ﷺ وأصغر بناته، ولم يكن أبو بكر وحيداً في حلمه.. كان هناك من ينافســـه، فمن ســـيفوز بفاطمة من بين هؤلاء الأفذاذ.

---

(١) يعني مات زوجها.
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٥١٢٢) والبيهقي (١٥٨/٣) واللفظ له.
(٣) صحيح مسلم ٤-١٩٠٤.

أبو بكر وعمر وعلي يريدون فاطمة

تقدم أبو بكر إلى النبي ﷺ خاطباً فاطمة، فلم يرده النبي ﷺ، لكنه اعتذر منه بأسلوب نبوي مدهش، وكذلك فعل عمر، فاعتذر ﷺ بالأسلوب نفسه، فماذا قال ﷺ لصاحبيه وصهريه؟

الإجابة عند أحد الصحابة رضي الله عنه واسمه: (بريدة) حيث يقول: (خطب أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فاطمة، فقال رسول الله ﷺ: إنها صغيرة)[1] إنه اعتذار مؤدب. لم يكذب ﷺ عندما قال: إنها صغيرة، ففاطمة صغيرة حقاً لكن ليس على الزواج، فعائشة بنت أبي بكر أصغر منها بسنوات، وهي الآن زوجة لرسول الله ﷺ، والعرب يزوجون في أقل من سنها، فهي قد كانت مخطوبة في سن السادسة لرجل قبل النبي ﷺ، كما أن رسول الله أكبر وأسن من أبي بكر، ومن عمر أيضاً. إذاً فالأمر غير ذلك.

أمر آخر هو أن أبا بكر وعمر هما أفضل الأمة، وهما أفضل من عثمان رضي الله عنهم ومع ذلك اعتذر لهما وزوج عثمان ابنتيه: رقية وأم كلثوم، بل إن ابنته الكبرى زينب لا تزال متزوجة من رجل مشرك حتى الآن[2]، وهو أبو العاص بن الربيع. إذاً فالأمر لله من قبل ومن بعد، والزواج من الأمور الدنيوية التي تراعى فيها أشياء أخرى خارج الأفضلية والتقوى والكبر والصغر.

انصرف أبو بكر وانصرف عمر رضي الله عنهما، وقد رضيا بما رضيه الله ورسوله ﷺ، وتسربت أخبارهما إلى مسامع امرأة يهمها أمر زواج فاطمة، فأقلقها ما سمعت، فهبت مسرعة إلى سيدها تحرضه، وتحرضه على الزواج من سيدة نساء العالم. فماذا فعل هذا السيد، وماذا قال عندما سمع الخبر؟

ها هو يحدثنا بنفسه عن ذلك فيقول: (خُطبت فاطمة إلى رسول الله ﷺ، فقالت لي مولاة لي: هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ﷺ؟ قلت: لا. قالت: فقد

---

(١) سنده صحيح. رواه النسائي (٦/٦٢) حدثنا الحسين بن حريث، حدثنا الفضل بن موسى عن الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه: وعبد الله تابعي وثقة معروف وتلميذه الحسين ثقة من رجال مسلم (التقريب ١/١٨٠) والفضل ثقة ثبت من رجال البخاري ومسلم (التقريب ٢/١١١) وشيخ النسائي ثقة من رجال الشيخين (التقريب ١/١٧٥).

(٢) أقصد وقت خطبة أبي بكر وعمر لفاطمة رضي الله عنها وعنهم.

خطبت. فما يمنعك أن تأتي رسول الله ﷺ فيزوجك. فقلت: وعندي شيء أتزوج به؟ فقالت: إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوجك.

فوالله ما زالت ترجيني حتى دخلت على رسول الله ﷺ)[1].

لكن لماذا كل هذا التردد في خطبة فاطمة، والقلب ميال إليها؟

أسباب كثيرة جعلت علي بن أبي طالب يتردد في خطبة فاطمة، وهي بنت ابن عمه. لعل أحدها كونه معدماً.. لا يملك ما يقدمه مهراً لهذه الوردة الطاهرة، وهي التي تستحق الكثير الكثير. لكن كيف أصبح علي معدماً وهو يملك شارفين من غنائم بدر؟

لقد ذهب كل شيء، واختفت الناقتان.. ذهبتا مع الريح والخمر، وبقي علي وحيداً يملؤه الهم، وتفيض عيناه من الحزن. فقبل أيام رأى شيئاً مكدراً.. رأى ناقتيه قد سال دمهما، وبقرت بطونهما، واقتطعت أسنمتهما، وهو لم يرتكب خطأ في حق أحد، أما ما زاد في حزن علي وكدره، فهو أن الذي فعل ذلك به وبمهر فاطمة كان عمه وعمها حمزة بن عبد المطلب!! ذلك الأسد الهصور، والفاتك الجسور. لقد شق بطني الناقتين، وقطع سناميها وانتزع كبديهما، فـ:

هل وقع شجار بين حمزة وعلي

هذا ما سنعرفه من علي نفسه حيث يقول: (كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان رسول الله ﷺ أعطاني شارفاً من الخمس يومئذٍ، فلما أردت أن أبتني بفاطمة بنت رسول الله ﷺ وأعدت رجلاً صواغاً من بني «قينقاع» يرتحل معي، فنأتي بإذخر أردت أن أبيعه من الصواغين[2] فأستعين به في وليمة عرسي، فبينا أنا أجمع لشارفي متاعاً من الأقتاب والغرائر والحبال، وشارفاي مناخان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار، وجمعت حين جمعت ما جمعت، فإذا شارفاي قد اجتبت أسنمتهما، وبقرت خواصرهما، وأخذت من أكبادهما، فلم أملك عينيَّ حين رأيت ذلك المنظر

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣-١٦٠): حدثني عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن علي. ابن نجيح ثقة التقريب ٣٢٦ وهذا ليس من التفسير فهو لم يسمعه من مجاهد أما ما عداه فقد قال ابن أبي حاتم: قلت لأبي: ابن أبي نجيح عن مجاهد أو خصيف؟ قال: ابن أبي نجيح. التهذيب (٦-٥٤).

(٢) الذين يعملون في صياغة الذهب والفضة.

منهمـــا، قلت: من فعل هذا؟ قالوا: فعله حمزة بن عبد المطلب، وهو في هذا البيت في شَرْب[1] من الأنصار، غنته قينةٌ وأصحابه، فقالت في غنائها:

ألا يا حمزة للشرف النواء

فقام حمزة بالسيف، فاجتب أسنمتهما وبقر خواصرهما، فأخذ من أكبادهما.

قال علي: فانطلقت حتى أدخل على رســول الله ﷺ وعنده زيد بن حارثة، فعرف رسول الله ﷺ في وجهي الذي لقيت، فقال رسول الله ﷺ: ما لك؟ قلت: يا رسول الله، والله ما رأيت كاليوم قط، عدا حمزة على ناقتي، فاجتب أسنمتهما وبقر خواصرهما، وها هو ذا في بيتٍ معه شَرْب.

فدعا رسول الله ﷺ بردائه فارتداه، ثم انطلق يمشي، واتبعته أنا وزيد بن حارثة، حتى جاء الباب الذي فيه حمزة، فاستأذن، فأذنوا له، فإذا هم شرب، فطفق رسول الله ﷺ يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة محمرةٌ عيناه، فنظر حمزة إلى رسول الله ﷺ، ثم صعد النظر إلى ركبتيه، ثم صعد النظر فنظر إلى سرته، ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه، فقال حمزة: وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟ فعرف رسول الله ﷺ أنه ثمل، فنكص رسول الله ﷺ على عقبيه القهقرى، وخرج وخرجنا معه)[2].

فلا فائدة من العتاب واللوم إن لم تذهب الخمرة من رأس شــاربها، فالانســحاب هو أفضل قرار في مثل هذا الظرف.

انسحب رســول الله ﷺ وزيد بن حارثة، وانسحب علي وسحب معه حزناً أفاض عينيــه. إنها الخمر، وهي مــا زالت حتى اليوم مباحة، ولعلي مع الخمر قصة أخرى لا تقل فداحة عن هذه.

يحدثنــا عنها فيقول: (صنــع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا، وســقانا مــن الخمر، فأخذت الخمر منــا، وحضرت الصلاة، فقدمونــي، فقرأت: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ ونحن نعبد ما تعبدون.

---

(١) الشرب: هم الجماعة الذين اجتمعوا على شرب الخمر.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٤٠٠٣ ومسلم ٣-١٥٦٨.

فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾[1] فالصلاة حضور كامل، والخمرة غياب كامل، لذلك بدأ الإسلام يفتح القلوب والعيون على قوائم الفواجع التي يحدثها ذلك الغياب، وترتكبها الخمرة باسم النشوة، لكن هذه الآية لم تشر إلى تحريم الخمر، إنما تنهى عن الصلاة في حالة السكر، مما جعل عمر بن الخطاب يبتهل إلى الله قائلاً: (اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً)[2].

فأمسى بعض الصحابة من يشربها في الأوقات الطويلة، التي لا صلاة فيها، كالوقت بين العشاء والفجر، أو بين الفجر والظهر، لكن أثر الخمرة لم يقتصر على إفساد الصلاة.. إنها تنتهك العقل.. تغيبه، فينطلق الإنسان متحرراً من كل قيد.. من كل شيء.. تمحي أمامه الفواصل، وتنهار في طريقه الأخلاق والآداب. يذوب الخطأ بالصواب، والجريمة بالفضيلة. الخمرة تنطلق بالإنسان من الإنسان.. تمسخه حيواناً لا يفكر بشيء، ولا يعبأ بشيء.. جسداً.. كتلة من اللحم والدم تدوس كل شيء، حتى ولو كان هذا الشيء أباً، وينتهك كل شيء، حتى وإن كان هذا الشيء أماً.

عمر بن الخطاب يبحث عن بيان شاف، وعلي بن أبي طالب يبحث عن مهرٍ كاف لفاطمة، فهذا المهر قد ضاع.. يبحث عليٌ فلا يجد سوى ما يسد به رمقه، ويواصل بحثه فلا يجد شيئاً، لكنه يجد مولاةً له تشعر بتجوال فاطمة بين أضلاعه، فتقول له: (هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ﷺ؟ قلت: لا، قالت: فقد خطبت، فما يمنعك أن تأتي رسول الله ﷺ فيزوجك. فقلت: وعندي شيء أتزوج به! فقالت: إنك إذا جئت رسول الله ﷺ زوجك. قال: فوالله ما زالت ترجيني، حتى دخلت على رسول الله ﷺ، وكان لرسول الله ﷺ جلالة وهيبة، فلما قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما استطعت أن أتكلم، فقال رسول الله ﷺ: ما جاء بك، ألك حاجة؟ فسكت. فقال: ما جاء بك، ألك حاجة؟ فسكت، فقال: لعلك جئت تخطب فاطمة؟ فقلت: نعم. فقال: وهل عندك من شيء تستحلها به؟ فقلت: لا، والله يا رسول الله. فقال: ما فعلت درع سلحتكها؟

---

(١) حديث صحيح. صححه الألباني (صحيح الترمذي ٣/٣٩).

(٢) حديث صحيح. رواه أبو داود وصححه الإمام الألباني (٢/٦٩٩).

-فوالذي نفس عليٍّ بيده إنها لحطمية ما ثمنها أربعة دراهم-

فقلت: عندي. فقال ﷺ: قد زوجتكها فابعث إليها بها فاستحلها به. فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ)[1] وريحانة حبيب الله وزعيم الأمة.

وتغادر الفتاة بيت أبيها، إلى بيت ليس فيه شيء سوى الحب، وأحلام الشباب.. بيت لو تجولت فيه عيناك لفاضت بدموع كما فاضت عينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما رأى بيتاً شبيهاً ببيت فاطمة وعلي.

يقول عمر رضي الله عنه: (دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير، فجلست، فإذا عليه إزار، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، وقرظ[2] في ناحيةٍ في الغرفة، وإذا إهاب[3] معلق، فابتدرت عيناي[4]، فقال ﷺ: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فقلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي الله وصفوته، وهذه خزانتك، قال ﷺ: ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟ قلت: بلى)[5].

الدنيا عند رسول الله ﷺ (سجن المؤمن وجنة الكافر)[6] سجن المؤمن عن الجنة.. الدنيا معاناة نحو الجنة، سيشعر بأنها سجن عند دخوله الجنة ورؤيته لأنهارها، وساحاتها وميادينها وقصورها، وشوارعها ومركباتها وسفنها الفارهة، ومدنها وسمائها وأرضها وأجساد أهلها، وعقولهم وقلوبهم، والحب والود والسلام الذي بينهم، والأمن والسعادة والاكتشاف لكل جميل ومثير دون توقف[7].

---

(١) سند قوي رواه ابن إسحاق بالسند السابق حدثني ابن أبي نجيح عن مجاهد عن علي.
(٢) القرظ: شيء يدبغ به الجلد.
(٣) الإهاب: هو الجلد قبل دبغه، قال ﷺ: «إذا دبغ الإهاب فقد طهر» رواه مسلم.
(٤) سالت الدموع.
(٥) حديث حسن. حسنه الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه (٢-٤٠١).
(٦) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-٢٢٧٣.
(٧) انظر كتاب (الجنة حين أتمنى) لمعرفة عمق هذا الحديث.

والدنيا جنة عند الكافر إذا حشر إلى النار يوم القيامة يتمنى الرجوع إليها.. الدنيا سجن المؤمن وإلا لما (كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه أدماً[1] حشوه ليف)[2].

الدنيا سجن المؤمن وإلا لما عاشت فاطمة في ذلك البيت المتواضع، ومهرها درع بأربعة دراهم، وبنات كسرى وقيصر بين الوصيفات والخادمات في مروج وقصور مبحرة عبر الأنغام والأوتار.

أما أثاث بيت فاطمة، فكان يثير الشفقة.. قدمه ﷺ هدية إلى حبيبيه. لقد (جهز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل، وقربة، ووسادة أدم حشوها إذخر)[3] أثاثها رضي الله عنها: كساء من الصوف، وقربة للماء، ووسادة من الجلد محشوة بحشيشة الإذخر. فقر تصعب معه الحياة، إلا إذا كان الحب والإيمان عميقاً وفسيحاً، كما هو في قلبي فاطمة وعلي رضي الله عنهما.

فرح علي بفاطمة، وفرحت المدينة بعلي وفاطمة، وفي مثل هذا الفرح الغامر يقول ﷺ: (أعلنوا النكاح)[4] فإعلان الزواج ابتهاج بالجميل، وابتهاج بالاجتماع والمصاهرة والحلال، ولذلك يقول ﷺ لأمته: (فصل ما بين الحلال والحرام الدف، والصوت في النكاح)[5].

ها هو ﷺ يستمع إلى الدف والصوت، أي الغناء في مناسبة كهذه، فيعلن الحب لهؤلاء الذين يضربون الدف، ويحلف بالله على حبه لهؤلاء الذين يغنون.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (مر النبي ﷺ بحي من بني النجار، وإذا جوار يضربن بالدفوف يقلن:

---

(١) جلد.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ٣-١٦٥٠.

(٣) سنده قوي. رواه ابن ماجة ٤١٥٢ بسند فيه عطاء بن السائب رحمه الله وقد اختلط، والراوي عنه محمد بن فضيل، قال أبو حاتم، وما روى عنه ابن فضيل ففيه غلط واضطراب، التهذيب ٧-٢٠٥ وقد توبع عند البيهقي (٣-١٦١) تابعة زائدة وقد قال الطبراني رحمه الله: ما رواه عنه المتقدمون فهو صحيح مثل: سفيان وشعبة وزهير وزائدة (التهذيب ٧-٢٠٧).

(٤) حديث حسن. (صحيح الجامع ١-٢٤٣).

(٥) حديث حسنه الإمام الألباني. (صحيح سنن النسائي ٢-٧٠٩).

obeikandl.com

نحـن جَـوار مـن بنـي النجـار يـا حبـذا محمـد مـن جـار

فقال رسول الله ﷺ: يعلم الله أن قلبي يحبكم)[1].

وذات يوم (أبصر النبي ﷺ نسـاءً وصبياناً مقبلين مـن عرس فقام ممتناً فقال: اللهم أنتم من أحب الناس إلي)[2].

ويحرض عليه السـلام أمته على الانشـراح في مناسباتها الاحتفالية.. في قصة شاركت عائشة في زفتها، وحفظتها لنا فقالت: (أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال نبي الله ﷺ: يا عائشة ما كان معكم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو)[3].

وها هو عامر بن سعد بن أبي وقاص وهو ليس بصحابي يستنكر جلوس اثنين من الصحابة من أبطال بدر عند الدف والغناء وهما من أهل بدر فماذا قالا له؟

يقـول عامر رحمه الله: (دخلت على قريظة بن كعب وأبي مسـعود الأنصاري في عرس، وإذا جوار يغنين، فقلت: أنتما صاحبا رسول الله ﷺ، ومن أهل بدر، يفعل هذا عندكم؟ فقال: اجلس إن شئت، فاسمع معنا، وإن شئت اذهب، قد رخص لنا في اللهو عند العرس)[4].

غمرت المدينة فرحة، وغمرت بيـت النبوة التهاني من المهاجرين والأنصار، وقدم المحبون للمشـاركة في أفراح الزهراء، وتسلسل بين القادمين رجال يبتسمون في وجه النبـي ﷺ ووجوه أصحابه، بينما كانت قلوبهم مكشـرة جامحـة مولية.. تكاد تميز.. تتقطع حقداً وغيظاً كلما تهادى سرور إلى قلبه، أو بيته ﷺ.

كانت قلوب هؤلاء تتلمـظ كالحيات. أحد هؤلاء المزعجين المخيفين.. رجل يدعى (عبد الله بن أبي بن سلول).

---

(١) سنده قوي رواه البيهقي ٢-٥٠٨ والطبراني في الصغير ١- ٦٥ من طرق عن أبي خيثمة مصعب بن سعيد المصيصي، حدثنا سعيد بن يونس ، عن عوف الأعرابي، عن ثمامة بن عبد الله بن أنس ، عن أنس. وليس له علة سوى تدليس أبي خيثمة، وهو هنا لم يدلس بل صرح بالسماع من شيخه والبقية ثقات. وابن ماجة (الصحيح للألباني ١/٣٢٠).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٥١٨٠).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٨٦٧).

(٤) حديث حسن. (سنن النسائي ٢/٧١٢).